جراح الغابـة

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
- -/ -/ - -

-،----
العبيدي، سعد
جراخ الغابة – سعد العبيدي – عمان: دار فضاءات، 2012.
الواصفات: / القصص العربية // العصر الحديث/.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2012

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

جراح الغابة – سعد العبيدي - الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com
التوزيع في تونس
فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس
شارع الهادي نويرة. النصرII - تونس 2037
تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) - الجوال 39 42 29 98 (216+)
E.mail: fadhahet@yahoo.com
Website:http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

سعد العبيدي

جراح الغابة

روايـة

فضاءات
للنشر والتوزيع

إشـــارة

لم تكن لدي النية في الاصل لكتابة رواية، تعكس صورة الواقع في بغداد وبعض مدن أو غالبية مدن العراق، قبل العودة إلى يوميات اعتدت كتابتها، لغرض الإفادة من المكتوب فيها كشواهد إثبات تدعم وجهة نظري التي اروم وضعها في كتاب جديد أخذ عنوان (حصاد العاصفة ـ ثقافة التضاد العراقي بين زمنين). وبالتدقيق في المكتوب وجدت أمامي مأساة أُسَرٍ ذبحت في العامرية والسيدية ومدينة الحرية.

ووجدت تجاوزات واعمال خيانة وفساد تخطت في واقعها حدود المعقول.

حاولت حشرها في مادة الكتاب بصيغة سرد روائي يُسهِّل على القارئ مسألة الوصول إلى الاستنتاج الذي أردته، فكانت في غير موضعها، ولا تنسجم وصيغة السرد التحليلي الذي أعتمد في ترتيب أحداث وفصول الكتاب. عندها توقفت، وأقتطعت ما كتب، وأعدت صياغته من جديد، جاء على شكل سرديات بصيغة روائية، تؤرخ وقائعها عيشاً مريراً لأهل بغداد بين الأعوام 2005 ــ 2007 على نحو خاص. كان الخوف حد الرعب من الجار الذي يختلف معك في المذهب والقومية، والخشية حد

الغثيان من السير وحيداً في الأزقة والشوارع الفرعية. هجرة من مكان، وتهجير إلى آخر، وسير في طرق ملتوية .... حيرة دفعت أهل العراق إلى السير بإتجاهات متناقضة، يوقد بعضهم نارا لحرق ذاته التي تكونت منذ آلاف السنين، ويصب الآخر زيتا على النار. هم الانسان في الغالب بقاءاً جسديا على قيد الحياة، من بعده الطوفان.... حيرة، آهات، هلوسات وضعتنا جميعا في دوامة التساؤل:

لماذا يحدث كل هذا؟.

ولماذا يقتل ذاك؟.

ومن وراء هذا الفعل الشائن وذاك؟

فجاء المقتطع كتابا بأبواب ثمانية بصيغة روائية، بُدلت فيها الأسماء فقط، لتجيب عن هذه التساؤلات، وغيرها الكثير في مجتمع لن ينقطع فيه وعنه السؤال، عشرات أخرى من السنين.

سعد العبيدي

شباط 2012

- 1 -

خيالٌ أم شبح إنسان من الماضي البعيد، لا يمت إلى الحاضر بصلة، هذا الرجل المقبل بملابسه الرثة، وتقاسيم وجهه المعبرة عن قسوة السنين. طوله المفرط وجحوظ عينيه لافت للنظر، ووقع أقدامه الثقيل غير المتوازن على أرض الغابة يثير الريبة. توقفه المتكرر، بالتفاتة ناقصة إلى الخلف، يبقي الشك ماثلا في وجوده بهذا المكان، وفي سيره على الطريق النيسمي الضيق، وسط الأشجار والشجيرات والأحراش الكثيفة.

الطريق الذي يمر متعرجا بشكل غير نظامي، في غابة تمتد من الساحل حتى أطراف المدينة، مسافة تقترب من الخمسين كيلومترا. (دونكانسبي هيد) آخر نقطة مأهولة على مرتفعات الشمال الاسكوتلندي التي تغطى قمم جبالها الثلوج، أكثر من ستة شهور في السنة.

اقترب بحذر شديد، عيناه الجاحظتان مفتوحتان على الآخر. تراقب بتمعن لايخلو من حساب التحوط، الذي أصبح صفة تلازمه منذ أن قرر

الهرب من نفسه، ومن عالم يعتقده مجنوناً. التحوط يساعد عقله المرتاب على الدوام، لتقدير المسافة التي يريد أن يبقيها آمنة بينه وبين الآخر الغريب. وقف في المواجهة حائرا، صامتا لا يتكلم، مصدوماً بالهيئة التي أمامه، وبالجسم الممدّد على العشب من دون حراك. يتنازعه الخوف من وجوده وسط الغابة، التي لا يمر في طرقها الوعرة غير الصيادين من أهل المنطقة، وموظفي الغابات المختصين بشؤونها، أو ربما يكون مستغربا من لون، وتقاسيم الوجه الشرقي الذي تفاجأ به، في منطقة لا يفكر أهل الشرق بالتقرب منها، سواء كانوا مهربي لاجئين إلى بريطانيا بلاد الأحلام، أو مستطرقين.

متشنجٌ، صنم يعود تاريخه إلى الأيام التي سبقت الاسلام بسنين. في وجهه العبوس بقايا سمرة تغطيها صفرة كونتها أمراض القهر بعمر الشباب، أو صاغتها غيابات الشمس التي لا تشرق هنا إلا بالمناسبات. يصعب الجزم والبت في الاسباب بمثل هذه المواقف المثيرة والعابرة، لأنها كثيرة ومتشعبة.

ما فائدة الجزم، وقد اختلطت جميعها في طريق الغربة الطويل، وأجوائها القاسية؟.

هذه الغربة التي يتشقق فيها الهارب من وطنه، مثل أرض العراق التي يبست وتشققت من شحة الماء. يقف كمن يتطلع من أعلى التل بيأس نافذ إلى العظم، لمنظر لا يريد له التكرار.

القى السلام بلغة إنجليزية ممزوجة بلكنة أجنبية واضحة، وفي رد السلام باللغة نفسها، واللكنة تأكد أكثر من حدسه، أن صاحب الجسد

الموجود أمامه عراقي على الأغلب. فتشجع في أن يتقدم خطوته الأخيرة، ليسأل بكلمات قليلة، وقبل أن يتلقى الاجابة التي أراد، أشار إلى انه سامر، عراقي من بغداد مهاجر يائس من الحياة، قذف به الحظ المنحوس خارج البلاد، ودفع به القدر المشؤوم إلى أن يكون في هذه المنطقة، يتجول تائها في غابتها التي عرف كل طرقها وأحراشها والوديان من كثرة المشي التائه فيها طوال أيام. الاطمئنان الذي لم يكن كافيا، أبقى نصفه الواعي قلقا، يتلفت يمينا وشمالاً، كمن فقد شيئا ثمينا في مشيه هذه المرة، أو تعرض لمطاردة رجال الهجرة الذين لا يقوى على التخلص من قبضتهم، إذا ما أرادوا ترحيله في الوقت الذي يشاؤون.

أخذ نفسا، أتكأ على جذع الشجرة في جلسته، حاول الظهور بمظهر السامع، القادر على التواصل، فلم يستمر طويلا، بعد أن شعر بتدافع الكلمات في ذاكرته المليئة بالانفعالات، فعرّج على موضوع النحس الذي رافقه، يوم مقتل عائلته ذبحا حتى وصوله إلى هذه البلاد التي أرادها مكانا جديدا، لأحلام من نوع آخر. وجد الجو ملائما للبوح بالمكبوت، فبدأه متسلسلا حسب تدافع الكلمات التي تحاول الخروج من دون سيطرة منه. تذكر بداية مشواره مائدة الافطار الأخيرة التي أعدت قبل الذبح، رمضانية خاصة، صنوف متعددة، أنجزتها الوالدة الدكتورة سامرة لكي يكون فطورا مميزا في اليوم الذي تبقى لهم في العامرية، بعد أن تأكدت من أن إيجار البيت الصغير في منطقة الجادرية أصبح واقعا، حققه الزوج سبيلا للخروج من دوامة الخوف التي تبتلعها وباقي أفراد الأسرة ليلا وفي النهار. الانتقال إليه متاح في صباح الغد الباكر. أملٌ انتظرته ثلاثة شهور متصلة،

حسبت وقعها البطيء ثلاث سنين. لا تفكر ببيتها الذي ستتركه لمن يحتله، سواء كان مُهجرا من احدى مناطق بغداد، التي أستشرى فيها التهجير، أو (قفاص) يتصيد في هذه الأيام التي تصلح (للقفص) بأجوائها الملبدة بالهموم، ولا يهم إذا ما استخدم مقرا لإدارة أعمال الإرهاب المنظم، كأسوأ إحتمال.

لا تريد أن تَحسُب بقايا الاثاث الذي لا ينفع نقله إلى البيت الجديد خسارة. مشغولة فقط بإتمام المائدة كما أرادت أن تكون متميزة، لهذا اليوم الذي عدته وباقي أفراد الأسرة الأخير. ببيتها الذي أنشأته مملكة خاصة، قد تعود إليه بعد انقشاع الغيمة المؤقتة. تحمد الله وتشكره على تحقيق الأمل الذي أرادت. تُكَرر مع نفسها (هذا اليوم سننام جميعا بلا أرق من خشية العيش بالعامرية، وأيامنا في الجادرية ستكون بأمان. لن أقلق على البنات في الطريق إلى الجامعة، ولا على سامر حتى لو عاد إلى البيت بعد الساعة الثانية عشرة ليلا. الله كم هو جميل أن تتحقق الأحلام وسط عثرات الكوابيس).

رائحة الأصناف المتعددة للطعام تختلط مع بعضها، حتى لم يعد الصائم قادرا على تمييز أي صنف يكون الأحسن، وأي نوع هو الأشهى، ليبدأ به أولا، بعد خمس دقائق فقط، موعد المدفع التقليدي للافطار. تلاوة آيات من الذكر الحكيم مسجلة بصوت عبد الباسط عبد الصمد، تبثها الفضائية العراقية منذ نصف ساعة، تعطي المكان قدرا من الهدوء والخشية. المطبخ القريب لا يسع الأم الحنون، والاستاذة الجامعية المقتدرة، وهي تعطي التوجيهات المتكررة، للآنسة منى المتكاسلة بنقل الجاهز منه الى الطاولة

الموجودة في غرفة الطعام، بسبب دلعها المفرط، وانخفاض مقدار السكر في الدم بعد يوم صيام طويل.

واقفة تتأمل السماء، وهي تنتظر اللحظات الأخيرة لوضع حساء العدس في أربعة صحون، لأفراد الأسرة الأربعة. جميعهم صيام. لا تقترب من شذى، ولا تعترض على عدم مشاركتها في استعدادات الطبخ والتقديم، كذلك لا تعلق على شدة انهماكها في مراجعة الموضوع المطلوب لامتحان مادة التشريح قبل دقائق من الفطور.

تقدر حالة الزوج، المتعب من الصيام في جو حار، والمشغول بمسألة الانتقال الى البيت الجديد، وبسيارة الحمل، التي يخشى أن يتأخر سائقها عن الحضور في موعده الساعة العاشرة صباح الغد، تأسيسا على الاتفاق الذي تم معه ظهر هذا اليوم وحسب عنوان البيت الذي ثبته بورقة أعطاها له أثناء الاتفاق، للبدء بنقل المفيد من الأثاث، أو أن يغفل هذا السائق الذي لم يعرفه من قبل، عن اصطحاب العمال الذين أخذ على عاتقه، جلبهم معه من المسطر القريب من الكنيسة، للمساعدة في التحميل والتفريغ، من البيت الحالي إلى البيت المستأجر.

الهدوء في الدقائق التي تسبق الأذان واقع بشكل عام، إلا من أوامر متفرقة تصدرها الأم، حول الترتيبات النهائية لتوزيع الطعام، وتأوهات منى، وشكواها من الاستغلال المقصود لحالها هذا اليوم، وترك شذى، مشغولة بالقراءة طوال اليوم، والالحاح على تشغيل المولدة الموجودة في الحديقة، بغية الحصول على نسمة هواء من مروحة منضدية اعتادوا تشغيلها عند انقطاع الكهرباء.

هدوء، أوامر، مشاكسات، ضحكات الوقت ذاته الذي يجلس فيه ستة أشخاص مسلحين من أحد تنظيمات الجهاد الاسلامي، في سيارة نيسان باترول، بلون أبيض، لا تحمل أرقاما. تقف في الجانب الآخر من الشارع، على بعد خمسين مترا من البيت. يراجع من فيها خطتهم المعتمدة من أمير المنطقة الـمُنَصبْ حديثا. يحسبون توزيع الأدوار بقيادته شخصيا، لاقتحام البيت قبل الشروع بتناول الافطار. يستعجلون التنفيذ (لابد أن يتم قبل تناول الافطار، ليغادر المستهدفون دنياهم جياعا).

الساعة تجاوزت الخامسة بقليل، لم يبق على أذان المغرب إلا دقائق معدودات، في جو صيفي يستمر حارا، وإن تداخلَ مع الخريف، يحتاج خلاله البيت إلى تبريد، والكهرباء لا أثر لها، لا يمكن تشغيل التبريد. شذى اليائسة من عودة الكهرباء، تعاود الالحاح على تشغيل المولدة، وربط المروحة المنضدية في غرفة الطعام.... إلحاح يستسلم الوالد لتكراره، ولأوامر الوالدة حول الموضوع نفسه، فيشير إلى سامر الذي يتنقل بين المطبخ والصالة من دون عمل مفيد بالصعود إلى المخزن، بغية جلب السلك الكهربائي الخاص بالتوصيل، وتشغيل المولدة (لابد من أن يتم التشغيل قبل حلول الافطار ليتناولوه وجبة مميزة بارتياح).

المخزن الذي يحوي السلك المطلوب في الطابق الثاني، يحوي كذلك جميع العدد، واللوازم المطلوبة لإدامة البيت. مبعثر بعضها، ومرتب بعضها الآخر على رفوف نظامية، وطبقة من الخشب، تجعل نصفه مقسما على طابقين، تشرف بابه على غرفة الجلوس بزاوية رؤية عريضة، وشباكه الصغير يطل على ممر خلفي، يفصل بينه وبين الجيران.

في هذا المخزن العتيق أكثر من سلك للتوصيل، متشابكة بطريقة فوضوية مثل وشيعة غزل تاه رأسها كما تضرب في ذلك الأمثال، تحتاج إلى فك تشابكها، واختيار الأطول منها لعمل التوصيل المطلوب بغرفة الطعام، مع التحويلة الخاصة بالخط القادم من المولدة، وسامر لا يجيد فك الاشتباك. الأستعجال صفة تغلب على سلوكه المعتاد، في مواقف تحتاج الى السرعة في الانجاز، والعد التنازلي للفطور بدأ، وأي تأخير سيغضب الوالد، وسيعيد الاتهام بالكسل والتراخي، لكن الاستعجال ومحاولة تجنب الغضب يضاعفان الوقت المطلوب لفك الاشتباك، ويزيدان من فسحة التأخير. يحاول جاهدا أن يستبق كل الاحتمالات الواردة، ويخفف من أثر التأخير، بتوجيه اللوم إلى منى التي وضعت التوصيلة في المخزن اللعين آخر مرة، وبصوت يسمعه الجالسون بالصالة. توقف عن اطلاق اللوم بعد أن حصل على المطلوب، موجها الكلام إلى نفسه دون أن يسمعه أحد من الجالسين (الحمد لله لم يتكلم الوالد إلى الآن). يهم بالخروج فرحا بالانجاز العظيم. يوقفه في مكانه وسط المخزن صوت مطرقة ضخم، يأتي من ضرب باب الصالة، كأنه صوت إنفجار قنبلة يدوية هجومية، يعقبه صوت تكسر زجاج الشباك المطل على الحديقة الأمامية.

إرتعب وإن لم يميز الأسباب. وقبل أن يفيق من نوبة رعبه نَفذَ شخص ملثم من الفتحة التي أحدثها الكسر. طويل القامة، كأنه محارب من الفايكنغ، يحمل بندقية كلاشنكوف بأخمص يطوى بدلا من السيف المعهود، يوجه فوهتها إلى الحضور. يدخل آخر بالتوقيت نفسه من الباب التي فتحت من أول ضربة. متوسط القامة، نحيف مثل عدائي المسافات

الطويلة، يحمل سيفا بدلا من الشعلة الاولمبية، يلوح به مثلما يفعل المسلمون الأوائل في معاركهم مع الكفار، يخلع لثاما كان يغطي وجهه المحمر بلون الدماء التي تدفقت إليه من فرط الشعور بالغبطة. عيناه تلتمعان ببريق غريب، مثل عيون قطة محبوسة في قفص حديد محكم الأقفال، وقد تجسدت في داخلها كل مثيرات الغل والكراهية. يتبعه إثنان يحملان مسدسات وذخيرة محزمة بها خصورهم، يخلعان اللثام بعد أن شرع هو بخلعه في أول خطوة أجتاز بها الباب. أحدهما ممتلئ، أسمر داكن البشرة، أجعد الشعر، سوداني الأصل على الأغلب، والآخر شاب أبيض بسمرة خفيفة، لم يكتمل نمو جسمه، ولا شعر لحيته التي ظهرت على ذقنه شعيرات متفرقة، لايزيد عمره بأي حال من الأحوال عن السادسة عشرة عاما. هيئته العامة توحي أنه عراقي من بغداد.

تفرق الثلاثة على الزوايا الحاكمة في الصالة والمطبخ فور دخولهم، بإشارات من أميرهم الرابع حامل السيف، الواقف بمواجهة الأب الدكتور المذهول، وهو يحاول النهوض من مكانه كرد فعل غريزي أولي، فيحصل من السياف على أمر فوري حازم بالجلوس في نفس المكان، وهو ينتقل بعينه من مكان إلى آخر في البيت، بتركيز كمن يعرف خباياه، أو يتوقع رد فعل غير محسوب. تقدم خطوة إلى الأمام (كُفارْ، زنادقة، عملاء، جاء يومكم) يزداد صوته حدة، ورخامة مع كل كلمة تقال، يتصور نفسه عند نطقها قائدا للميمنة في جيش خالد بن الوليد في صدر الاسلام، أو الميسرة مع طارق بن زياد في عبوره البحر، متجها صوب الأرض الاندلسية.

المخزن بدأ يصغر ويتقلص ويضيق، وتقترب الجدران منه حتى يكاد يطبق بحيطانه وبما فيه من مواد، أو إن الجسم الناصح تضخم، حتى لم يعد يسعه المكان، والرأس تورم من الدم الذي تدفق إليه فجأة من شدة الخوف، وسرعة ضربات القلب التي تضاعفت عدة مرات.

أهكذا هو الموت؟.

إحساس بالضيق من المكان، عتمة شديدة، عرق يتصبب، وحشة عميقة، طيش يرفع الجسم في الهواء. لم يفكر من قبل بشكل الموت الذي يحس بدنوه الآن، وبشل القدرة على التفكير، والخدر الذي يسري في الجسم بادئا بالرأس متجها إلى أخمص القدمين.

الساقان الطويلتان غير قادرتين على حمل هذا الجسم الواقف قريبا من الباب. غصة في الحلق لا تخرج خوفا من افتضاح الأمر. دوار وألم وعدم قدرة على الثبات تقربه من الموت المرعب. تمنعه من أن يمسك الفأس المركونة على الرف القريب، والهجوم بها على الارهابين المنتشرين في الصالة كما تمنى في هذه اللحظة الحرجة.

فأس مقابل مسدس، وجسم يقترب منه الموت مقابل بندقية، غير معقول، وإغماءة قد تجنبه الموت خوفا، ستوقعه في الفخ المنصوب للموت عمدا.

النفس الخائرة تناجي أناها الواعية (لابد من الصمود، بل والهرب، حتى لو تبين ما يحصل غير حقيقي، أو ضربا من الجنون، كما تنبئ مجسات الشعور المضطربة). لا شيء يستعان به لتفادي السقوط على أرضية المخزن التي تتبعثر عليها الأشياء، سوى الاتكاء على الحائط، وتَحسسهُ باليد التي

لا تمسك فأسا ولا تقوى على رد الباب. عمل سريع يمكن أن يعيد الوعي، وينهي حالة التشوش الحاصلة في الادراك البصري والسمعي هو الهرب، لابد منه تحديا لهؤلاء الداخلين عنوة إلى البيت في وقت الأفطار.

المحاولة الأولى تفشل لعدم مطاوعة الساقين، اللتين بقيتا مسمرتين في المكان، إلا من ارتجاف كاد يسقط الأدوات الموجودة على الرفوف ويفشل أمر الهرب.

موقف خذلان صعب يعيد الخائب إلى الطفولة..... نكوص إلى مراحلها المتأخرة، مفيد في حسم الصراع الحاصل بين الرغبتين المتناقضتين (الموت بالهجوم على الداخلين بفأس، مقابل النجاة بالهرب من الموقف مثل قط يلاحقه كلب مسعور).

العقل الطفولي يحسم كثيرا من الاشكالات في كثير من المواقف، وإن كانت بعض توجهات الحسم نوعا من الجنون، يدفعه هذه المرة إلى التفتيش في المخزن عن مكان يمكن فيه الاختباء، كما كان يجري في اللعب مع الوالد، والبنات قبل أكثر من خمسة عشر عاما، لكن المخزن اليوم قد أمتلأ بالقديم من الأدوات والجديد منها، وضاق كثيرا عما كان عليه أيام اللعب، والزمن قد تغير، لم يعد فيه مجال للعب في مواقف الاغتيال، وحجم الجسم قد تضخم بما لا يساعد على الاختباء.

الوقت يمر حرجا، ولا مجال للتدقيق في الأفكار، فيتجه العقل الطفولي نحو الشباك الصغير في الركن المقابل لباب المخزن، المؤدي إلى الممر الخلفي للدار، سبق وأنْ أستخدم في لعبة الأختباء، أيام الطفولة، لكن كتيبة

حديدية وضعت لتغطيته من الخارج بدافع الحيلولة دون تسلل السراق منه إلى داخل البيت، تزيد من التعقيد، وقد تفشل خطة الهرب.

زادت العتمة، وإقتربت الجدران ناحيته، أكثر فأكثر، خشي أن ينغلق عليه التابوت، ولم يبق أحد من الأسرة يواري عليه التراب، سمع بملأ أذنين صاغيتين، أوامر تفتيش كل شبر من البيت. لا يدري كيف قفز حافيا؟.

كيف وصل إلى الشباك؟.

وكيف دفع الحديد الذي صَدِيءَ من ملامسته مياه الأمطار؟. الذي يدريه فقط، أن جسمه قليل الشحم، تقلص مثل الاسفنج، أحس في لحظتها أنه يخلو تماما من العظام. قوة غريبة فعلت كل هذا بلحظة زمن لا تقاس. لم يعرف مصدرها حتى الآن، فاستسهل عزوها إلى الله، والقسمة المحتومة بالنجاة. ثوان لا يتذكر في أثنائها تفاصيل مئات الحركات، والمحاولات المتعاقبة، حتى أصبح، خارج الشباك، خطوة هي الأهم باتجاه الخلاص، بضمنها رد الشباك قريبا من وضعه السابق، وسحب علبة كارتون فارغة لفرن كهربائي تم شراؤه قبل شهور من الآن، لتغطي الواجهة من الأمام.

اللحظات تمر وكأنها السنون، صراخ يعلو الصالة، وصمت أب مذهول، يدفع إلى الاستعجال دون الدخول بالتفاصيل، الموقف صعب لا أمل فيه بإكمال فكرة الهرب إلى خارج البيت الذي قد يكون مطوقا من آخرين، عادة ما يضعهم أصحاب هكذا أعمال لأغراض إحكام التطويق والحماية، وللحصول على نوع من التنبيه، ولا أمل كذلك في النزول على

الجيران، الذين أقاموا جدارا يفصلهم عن البيت وزادوا من أرتفاعه حتى لا يمكن تسلقه أو القفز من فوقه. ثم إن الهرب بعيدا عن البيت سيكون أكثر إيلاما من البقاء فيه، قريبا من أحداثه، للمشاركة بالألم على أقل تقدير. سطح الدار هو الخيار الذي يؤمن المطلوب، هروب في غير هروب، أو نجاة من الموت، وموت منقوص طوال الحياة، حالة يمكن للمرأ بلوغ مطلبهاُبالقفز من على الحافة الاسمنتية العليا للشباك إلى حائطه الذي يعزل السطح، كما كان يحصل تماما أيام المراهقة، فجرى تنفيذه بنفس سرعة الخروج، وأنتهى الحال أستلقاء على بلاطه الاسمنتي الذي يحتفظ حتى هذه الساعة بحرارة النهار.

جثة تتنفس، وعيون تستجدي العون من السماء، قريبا من شباك التهوية الوحيد، الذي يطل على الصالة بزاوية ضيقة. بقايا الخوف تُقَيّد الحركة، وتشل التفكير، كل نواحي التفكير، إلا من فعل الاستماع لما يجري، والتلصص بعين واحدة على بعض ما يجري، بانتظار المصير.

الشمس في وقت العصر بهذه الغابة تخفت أشعتها، بقاياها تصل المتمدد على العشب يسمع بهدوء وانتباه من أفق بعيد لا يراه، وكذلك من يتكأ بجسمه على جذع الشجرة بوضع الاضطراب، يريد ان يستمر في الكلام. إنكسارات ضوئها تلاشت تماما، بمرور الغيمة الباهتة قريبا من أعلى الأشجار. لفحة هواء شديدة تحرك فروع الأشجار. جميعها لم تثر إهتمام الراغب باخراج المكبوت، ولم توقف سبل استرساله في وصف المأساة. استمر في عرض بعض التفاصيل الخاصة بقفزه من على حائط السطح،

وجرح صدره أثناء التدلي منه، وكأنه يريد من عرضه هذا تغطية شعور بالدونية نما داخله بعد الهرب، وَترك الأسرة تُقتل بدم بارد.

ألم يكن الامير الغازي يريده هو ونادى بإسمه هو؟.

لو كان قد أمتلك الشجاعة الكافية، وظهر من مخبئه، وتحداه أو أستعطف ما بقي من صداقة كانت بينهما، لأمكن عتق رقاب الأسرة، والاقتناع بالقصاص منه فقط.(إحتمال وارد في بعض الأحيان).

عدّلَ جلسته التي تغيرت مرارا من شدة التحرك في المكان. تناول منديلا مسح به العرق المتصبب فوق حاجبيه، نظر إلى غيمة في الاعلى رسمت دوائر فوق وجهه الذي تغير لونه إلى الأصفر المزرق. أرتجفت عضلات وجنتيه كأنه يعيش الموقف ذاته من جديد. حاول أن يبقى متماسكا، لكن أحشاءه من الداخل تتقلص بشكل مخيف، جعلته يتلوى مثل أفعى كشفها ضوء الشمس في إنسيابه بين الأشجار. ومع هذا أصر على الاستمرار بالكلام مدفوعا بقوة من داخله لا يستطيع مقاومتها.

قائد المجموعة الواقف منتصبا وسط الصالة، يأمر بغلق القناة الفضائية التي يصدح فيها صوت الأذان، معلنا حلول وقت الأفطار، مستمرا في وضعية إعطاء الأوامر والتوجيهات. صوته الواضح، لم يكن غريبا، وكذلك وقفته التي جاءت بنفس المكان الذي وقف عليه عبد الجليل، قبل عشر سنين، ماسكا قصيدة فخر للمتنبي، ألقى بعض أبياتها على صديقه القريب، متصورا أن آلاف الشابات تستمع إليه بإمعان. إنه فعلا عبد الجليل.

لقد أعاد الصوت القادم من وسط الصالة بعضاً من الوعي الذي شتته صدمة الدخول الى البيت، وحالة الهرب من شباك المخزن. (يا إلهي إن هذا الصوت، طالما سمعه وحاججه وناقشه، إنه صوت عبد الجليل). زميل الطفولة الذي رافق الحقبة الزمنية من المدرسة الابتدائية حتى الثالث المتوسط. نعم إنه هو الذي سكن في أول الشارع، وغادر مع الأسرة إلى مكان مجهول أيام الهجرة إلى سوريا.

إنه الذي كان يصلي مع مجموعة من الزملاء في جامع ملوكي بشارع المضيف القريب، بداية مرحلة المراهقة التي نقلت مجموعتهم الى اجواء التدين. هذا غير معقول!.

لا توجد عداوة تدفعه لارتكاب هذا الاثم، ولا الوالد أحد شاربي الخمور الذي طلب مشاركته ضرب أحدهم في تلك الايام التي تزخر بطاقة التطرف، المهندس المعروف بسمعته الطيبة في المنطقة، أسامة الشيخلي، عندما كان عائدا من النادي ليلا، وهما جالسان معا على الرصيف. كان طلبا مرعبا مازالت تفاصيله مطبوعة في الذاكرة، وما زال توجيه الاتهام بالجبن، إثر رفض المساعدة بالاعتداء مطبوعا أيضا، وكذلك الحجة التي أتخذت في حينه للتبرير (لسنا المعنيين بتطبيق الشريعة الاسلامية).

هل يعقل أنه لم ينس هذا؟.

وهل يعقل أنه جاء الآن إلى الإنتقام، لهذا السبب فقط؟.

أم أن هناك أسبابا أخرى، تصعب معرفتها؟.

ربما تكون مزحة من مزحه التي كان يهوى إيقاع الزملاء بها أيام زمان.

لكن أسلوبه وتهديده وتهجمه، وشكله المنفعل لا يوحي بأن ما يحدث مزحة، ولا هو ضرب من الخيال.

لماذا يحصل كل هذا إذن؟.

نعم إنه عبد الجليل، الذي يمتلك شهوة عارمة للايذاء، يأمر أتباعه المجاهدين، أو مدعي الجهاد كما هو المصطلح الشائع الآن. لا مجال للتدقيق في التسميات بالنسبة لمن يكون مطروحا على سطح البيت، يتمنى الموت، في الوقت الذي يسعى فيه إلى البقاء. يأمرهم، وهم ينفذون من دون تردد أو نقاش.

الجلوس قرب الشباك المطل على الصالة لابد منه، لإن الوقوف على ساقين غير قادرتين على حمل الجسم الثقيل أمر مستحيل، لكن الاستمرار به يحول دون إتمام المتابعة كما هو مرغوب، وبدلا من الاستمرار، سيكون الجثو على الركبتين حلا يفي بالغرض، خصوصا وإن الألم الذي عادة ما يصاحب القائمين بمثل هذه الحركة أصبح غير موجود، والعقل الذي يتحكم به كذلك غير موجود.

يعود صوت عبد الجليل ليملأ المكان، ويثير الاشمئزاز. (فتشوا غرف البيت، كل زواياه، حتى تجدوه، وتجلبوه أمامي على الفور) بعد أن رد الوالد على سؤال، أكدت إجابته أن سامر قد خرج قبل دقائق إلى محل قريب لشراء عصير، لتناوله في الفطور.

منى الوديعة الهادئة المشاكسة، جلست مذعورة جنب شذى القوية الواثقة من نفسها، تنظران إلى ما يجري بعيون يملؤها الشك الموجود في العالم كله. تتبادلان التحديق مع أب تحاول عيناه أن لا تدمع ضعفا، في

موقف الملاواة غير المتكافئ، ومع عيني عبد الجليل، اللتين يتركز فيهما الحقد الغائر نحو الجميع، بعد أن غمره شعور بالكبرياء، والفخر في أن تكون عائلة سامر تحت رحمته الآن.

بينما الارهابيون الثلاثة يتوزعون على المطبخ، وغرف البيت، جلب النحيف ذو اللكنة الليبية، الوالدة جرا من شعر رأسها، وحشرجة تخرج منها عوضا عن البكاء. تتنفس بصعوبة، مثل غريق يحاول التشبث بقشة، يعتقد أنها ستخرجه من تيار الماء الجارف. دفع بها وسط الصالة، حاول الأب التوجه صوبها، بقصد الحماية غريزيا، جاءته وخزة سيف في جانب صدره الأيمن، أعادته إلى مكانه شبه مشلول، بعد أن تركت بقعة دم على قميص نومه الأزرق.

موقف الوخز اللئيم هذا يخرج الأم من حشرجتها، وصدمة الذهول، فكانت الجملة التي نجحت بنطقها (أنت عبد الجليل صديق سامر.... أبني ماذا فعلنا بك لتجازينا بهذه الطريقة). يصمت صاحب الأمر عن الاجابة، كمن يفكر بدافع، أو تبرير من مخزون ذاكرته القديمة، وبدلا من أن يجيب، إلتفت صوب البنات سائلا عن سامر، فتلقى الإجابة نفسها من الأب الذي خشي أن تخطئ إحداهن تحت ضغط الذهول، فتتسبب بتقديم سامر المختفي عن الأنظار ضحية رخيصة على مذبح الجهاد الزائف، ولربما أراد كسب الوقت، عسى أن يساعده في الهرب من المخزن كما كان يفعل أيام طفولته، ويجلب لهم جنودا من نقطة السيطرة القريبة، كي ينقذهم من هذا المأزق الرهيب، وعندما تذكر أنه قد سد بنفسه منفذ الشباك من الخارج بكتيبة حديدية، عاوده اليأس من نجاح هذا الاحتمال،

وإكتفى بالدعاء في أن ينجو الابن من هذا المصير المحتوم، ليحمل الاسم، ويكمل المشوار، ويحكي قصة غدر بطلها صديق.

شذى تبادر تأكيد الإجابة نفسها (إنه ذهب لشراء العصير). إجابة تزيد الأمتعاض، لاسيما وإنه لم يكن قد حسب احتمالات الخروج من البيت في الدقائق الأخيرة قبل الافطار. يومئ لهن بأن يتركن مكانهن، ويجلسن مع الوالدة على الأرض سبايا معركة أرادها لا تنتهي، إلا بحضور سامر الذي من أجله تم المجيء، أو أنتظار حكم سيصدره هو الأمير المولّى على المنطقة من القيادة العليا للجهاد، وكذلك على الجماعة أن تنفذ كل أوامره طوعا، من دون تردد، أو تأخير.

بئس هذا الزمن الرخيص، وبئس العيش فيه.

أجزمُ أنه سيُسجل بلا تاريخ.

سيبقى معفرا بغبار الفرقة والشك والتوسلات وإستجداء الرضا عن الحال، من غير أهل الحال. وسادة يغفو عليها أهل العراق، ينهلون منها أحلامهم، وتطلعاتهم للانتقام.

زمن لا يستحق الاستمرار فيه على قيد الحياة.

الموت أهون من ترقبه المرير كما يقول السّياب

الحاضر يبتلع الماضي، كل شيء يتغير، حتى البكاء، ستجده مذبوحا من الوجع، وقد تغير، وكذلك الحروف ستعجز عن كتابة صمت يدوي صداه في نفسك المتعبة. سوف ترحل، ولن تكف البحث عن ذاتك المفقودة بين الجبال، وداخل المدن المزدحمة، وعلى أطراف الغابات، تتوكأ على عصا أحلامك، لن تجدها ولن تكف عن البكاء، ولا عن صراخ

الشوق إلى الماضي، أملا بمعانقة نسمة صباح من دجلة، تغفو عليها قبل شروق الشمس في نومك على السطح المغطى بالتراب.

دفعتك أوهام السراب والرغبة بالنقاهة، وأحلام البحث عن الذات، أن تستلقي متأملا، على حافة طريق نيسمي، في هذه الغابة التي تقترب في موقعها من أقصى الشمال الجميل.

واسعة، تغطي مساحة الجبل المحاذي بسفحه لبحر الشمال.

عامرة، تكسوها الخضرة معظم أيام السنة مع فترات يغطي بياض ثلج الشتاء قمم أشجارها والوديان.

موغلة في القدم، تنتشر على طولها بقايا أشجار سقطت بتقادم الزمن وحكم السنين، وكذلك أوراق تكدست من الخريف الفائت، وما قبله وفروع أغصان.

التعب يوهن المتكئ على جذع الشجرة، مسترسلا في الكلام. يتوقف قليلا من شدته، أو من الحرج الذي يحصل في المعتاد عند ذكر بعض التفاصيل الخاصة بجسم المرأة، وشكل الاغتصاب، التي يكون ذكرها محجلا في المجتمع العراقي، والاسلامي على حد سواء. لكن هيئته توحي أنه يريد الاستمرار. يريد تفريغ ما في ذاكرته من إنفعالات الخوف، والغضب ليستريح، فعاود الكلام عن الشخص الثاني، أو المجاهد الثاني، السوداني الأصل، وقد أشهر مسدسا بقبضة عاجية بعد أن أخذ الأمر من الأمير في أن يتجه إلى الأعلى، إلى المخزن بالتحديد. يفتح بابه بقوة تسببت في إرتطامها بالحائط، وأرتدادها نحوه، فأعاد فتحها بقدمه لاعنا الموجودين في هذه الدار. ألقى نظرة في داخله، تأمل ما فيه من أدوات،

وحاجات، دفع بعضها من على الرفوف، وحرك أخرى ثم خرج. وفي طريقه للخروج عرَجَّ على باب السطح، حاول فتحها فوجد أنها مغلقة بإحكام، فصاح بلهجة أكدت أصوله السودانية، لا يوجد أحد. كذلك أكد ثالثهم بعد تفتيشه غرف النوم، عندها نزلا معا إلى الصالة، وعاودا وضع الوقوف في الزوايا التي سبق وأن وقفوا فيها قبل صعودهم إلى الأعلى بقصد التفتيش.

يدور عبد الجليل في مكانه دورة ناقصة، يغطي منها بنظرة عابرة عموم البيت، يضرب الأرض بحذائه (لعنة الله عليكم)، ضربة تدفع الدكتور عامر لأن يصحو قليلا من نوبة السكون التي أصابته بعد أول وخزة مؤلمة بالسيف، يحتقن الدم في وجهه الأسمر، يلتفت برأسه صوب الأمير (أنا حاضر لتلبية طلباتكم، ماذا تريدون؟).

– سامر، طلبنا الوحيد.

– إنه وكما أجبت في المرتين السابقتين قبل قليل، قد ذهب إلى محل البقالة ليشتري لنا عصيرا للفطور، وسيعود حتما بعد قليل، لكن ماذا تريدون منه؟.

عبد الجليل الذي بهت وجهه من إصرار الوالد على ذات الاجابة، وَردْ شذى الذي يؤيد هذه الاجابة، ونتيجة التفتيش لغرف النوم التي تدعمها عمليا، أهتزت جفونه، ونادى بصوت مليء بالحقد، والمرارة على زميله البغدادي، طلب منه أن يقف عند الباب الخارجي من الداخل، ينتظر سامر، يجلبه إلى هنا حيا، وإذا ما حاول الهرب، عليه أن يقتله في الحال، وعليه أن يبلغ المجاهدين المكلفين بالسيطرة على الشارع أن يترقبوا عودته،

وكإنه أقتنع من كلام الوالد في هذا الشأن. وبعد أن أتم أوامره، ألقى خطبة عصماء، عن الدولة الاسلامية التي يودون إنشاءها في العراق، وكيف يسعون بعون الله، ويجاهدون بإسمه إلى أن تكون خالية من العملاء والخونة والكفار والمرتدين، ملتفتا إلى الجمع المأسور (أمثالكم).

– إني لا أخدم الـ..... قالها بصوت الواثق من صحة إجابته، الواعي بعدم فائدة السكوت لتغيير مجرى مصير أصبح واضحا من دون لبس. لم يسمح له بإكمالها، بعد أن بادره بضربة من سيفه المشؤوم على يده اليسرى، تدلت معلقة بما تبقى من جلد ولحم قليل. لم يُثَنِّ بضربها، مكتفيا بسحبها، فجاءت إليه بعد لويها باتجاهين متعاكسين، وكأنها سعفة يابسة خُلعت من جذع نخلة شاخت من سنين. لوح بها منتصرا، ورماها على السبايا الجالسات بقوة، مناديا (الله أكبر)، فصاح الدكتور، ويده المقطوعة تنزف بغزارة، وتتحرك دون سيطرة منه، (إسمع، آنا لست عميلا، ولم أخدم الأجنبي، هذا وطني وإنا أستاذ، ونحن مسلمون، وأنتم كفرة وجهلة ومنحطون).

السياف، الحالم بإقامة الدولة الاسلامية ينطق (نحن الكفرة، سأريك ما نفعله بالكفرة، سألوعك قبل أن تسلم روحك، وأنت في الطريق الى جهنم).

المنظر مثير للاشمئزاز والنفور، يدفع الهارب إلى السطح لا إراديا بتجريب محاولة النهوض من المكان الذي يجثو فيه، والصراخ بأعلى صوت (ماذا تفعل ياصديقي) لكنها محاولة فشلت، مثلما فشلت محاولة التدخل عند التواجد في المخزن. غريزة البقاء أفشلتها بعد أن غلبت كل مساعي

الموت، وإن الصراخ الذي أراده أن يكون مثيرا لتنفيس الانفعال داخله، ولتنبيه العالم من حوله، قد تجمدت كلماته في الحلق المشلول، خوفا من أن يسمعها عبد الجليل، ويفتضح الأمر الذي يفضي الى الموت.

الخَرَسْ في المواقف الصعبة، وحتى الشلل وفقدان الوعي، قد تكون من بين الحلول السلبية لتجاوز حالة الخوف الشديد، وهذا ما حصل أعلى السطح، حيث لم يعد يقوى الجاثي هناك على الكلام، ولا على الحركة، إلا من نظرٍ تشوشه الدموع، وسمعٍ يقطع تواصله صراخ أب يستعجل الموت، وأم لم ينقطع توسلها، لإنقاذ البنات من جريمة التدنيس.

يومئ السياف إلى الموجودين في زوايا الصالة بإشارة فهموها على الفور. توجهوا صوب المأسورات، طرحوهن أرضا، لا يعيرون إهتماما لصراخ الوالد، وتكرار استغفاره، وطلب النجدة من الله بصوت أخذ يخفت بالتدريج. يهجمون كالوحوش. يبدؤون بتقطيع الملابس لابقائهن عرايا أمام الأب الذي لاحول له ولا قوة. الضحايا تقاوم بحركات لا إرادية ممزوجة بصراخ، واستجداء الرحمة، تتلقى كل واحدة عدة ضربات موجعة لكل حركة مقاومة للإعتداء.

الدكتورة التي بدأت مشوار التوسل، ومن ثم تحولت إلى المقاومة، قد عادت إلى التوسل من جديد بعد إحساسها بالتعب، وعدم الجدوى، متأملة أن يلين قلب عبد الجليل، أو أحد رفاقه المجاهدين (حرام عليكم نحن مسلمون. صائمون في شهر رمضان. إتركونا بحق الأذان الذي يفطر عليه المسلمون الآن. خذوا كل شيء. اقتلوني أنا والأب واتركوا البنات، لا ذنب لهن. ياالله أغثنا، يا محمد أعنا. خذوا البيت، خذوا ذهبنا، فلوسنا،

ما نملك، سنترك لكم العامرية والعراق، اتوسل اليكم أن لا تفعلوا شيئا بالبنات، إنه حرام، أرجوكم لا تفعلوا، أقبل أيديكم، بل أحذيتكم، لا تفعلوا). ولما تيقنت أن لافائدة من التوسل والكلام، اشتدت مقاومتها، وزادت شراستها مع كل قطعة قماش تنزع من على جسد البنات، فعاجلها السوداني بضربة على رأسها بأخمص مسدسه، نزفت دما غطى وجهها فصاحت بأعلى صوتها الله أكبر، وبدأت تئن بشدة، قريبا من الأمير الواقف في مكانه يتفرج، وكأنه مغرم بأنين الأمهات، أو متمتع به، نشوة سادية لا تدانيها أخرى في الحياة. وهو كذلك ينتظر توقف الأنين، قال كلاما فيه مسحة حقد لا يوصف (أنتم كفرة، يحل سبيكم، وأنتم جميعا غنائم حرب، يسمح الشرع أن نفعل بكم ما نشاء، اذهبوا إلى جهنم وبئس المصير) وبعد أن أتم حكمه المدعوم بشريعته السلفية، أعطى إشارة ثانية، فهمها الوالد إيعازا للرعاع بسلب شرف البنات، فقام من مكانه متجها صوب الذباح، يستعجل موته لكي لا يرى منظر الاعتداء، حشد كل ما تبقى له من قوة وصاح (جبناء) ثم بصق بالوجه العبوس، الذي بادره بطعنة غادرة خرج السيف المغموس بالحقد بقوة دفعها من جهة الظهر. استله على الفور، ليهوى به على الرأس والرقبة بضربات متكررة، أوقعت الوالد ميتا فوق جسد الوالدة التي لا تقوى على الحراك.

الدم ينزف غزيرا من الجسد الطري، يغطي سجادة الصالة الشيرازية، تتطاير زخاته من شريان الرقبة المذبوحة على البنات، والوالدة التي فاقت من أنينها، غمست كلتا يديها بدمه الحار، ثم لطخت بهما شعرها، وكأنها تريد أن تحنيه لحبيب وإن فارق الحياة، ثم لطمت خدودها، وخربشتها

بطريقة تركت أظافرها جروحاً لم يتوقف منها النزيف، ورفعت كلتا يديها إلى الأعلى صائحة (الله أكبر).

منى في حالة ذهول، تقترب من فقدان الوعي، ربما فقدت الوعي، شذى مازالت تحافظ على تماسكها، وكأنها تنتظر مصيرا اقتنعت ان لا مفر منه، وان لا داعي لأن تعطي انطباعاً للمعتدين بتوسلات غير مجدية، انهم من البشر، وإنهم في موقف الغل هذا منتصرون.

توقف متأزما حائرا لحظات، استجمع خلاله ما تبقى من قواه التي ضاع نصفها في المشي المتواصل ساعات حتى وصوله هذا المكان في الغابة، واستنزف نصفها الآخر في التفكير بالانتقام، وهموم الحياة التي أضحت من وجهة نظره بلا معنى ولا تفسير. عاود بنظره صوب الانسان الذي مازال مطروحا في مكانه ساكنا، مستغربا حكاية يصعب تصديق وقعها الذي يقترب من الخيال، في هذا الوقت من النهار، وبهذا المكان النائي الموحش من الغابة الخضراء.

***

- 2 -

ما أجمل أن يوقظك خيال امرأة رشيقة القوام بوقفتها أمام السرير الراقد على الطرف البعيد من الردهة، وما أروع أن تنعشك نبرات صوتها بموسيقاه الساحرة وهي تسأل عن الحال، وعن علامات نحول بانت بجسم راغب في الاستراحة، على سرير يكسوه البياض بأرضية خضراء، بين مجموعة أسرة في مستشفى بريطاني، شهد آلاف الحالات من الموت والحياة لعشرات مرت من السنين.

جميع الراقدين يعانون من مشاكل القلب، وقد اقتربوا من الشيخوخة، أو اقتحموا مرارة سنيّها الأخيرة إلا هي، الحورية التي شاخ قلبها بعمر الشباب. دخلت وإياك المستشفى وسط مدينة تعج بالمستشفيات، وبزوار السياحة الطبية، الوافدين من جميع البلدان العربية، الغنية بالنفط..... بلاد بعيدة، ترقد بها متأملا، وبلاد أبعد، ولدت بها مهموما، وأخرى تفتش فيها

عن عيش ميسور لما تبقى من عمر غطاه صدأ السنين. أنت بين الاقامة وحلم العودة، مشطور نصفين.

نصفك الغارق في الأبوة مشتت بين البلدان، يسافر الى الأحبة في هولندا، وألمانيا، والسويد، وآخرين في العراق الحزين، ونصفك الهرم مثقل بهموم العيش في عالم بلا نهايات، وتطلعات الاستقرار في أرض يتناثر بأجوائها الضباب طول الشتاء.

أية مفارقة هذه؟.

تقف بالمواجهة مبتسمة، اعتَذَرتْ عن قيامها عَرضَاً، بقطع سلسلة الأفكار، التي لا تنقطع في جو يخلو من صخب الشارع وأصوات التفجيرات وأنين الأمهات الثكلى أول النهار.

أربعينية في عمر الشباب، قمة الشباب، أنيقة كعارضة أزياء برداء صُممَ بسيطا، لربيع بغداد في عهد أبي نؤاس. روحها مرحة، ربما كان لحسنها الواضح الفضل في بث هذه الروح، قوية بطبيعتها، لم يخذلها الاحساس بالقوة مرة في حياتها. وجهها معجون بقليل من حمرة الغرب، التي توحي وكأنك تخيلتها في مراهقتك فتاة أحلام وحيدة، أو تأملت وجودها في بغداد قبل الخراب، سائحة تعبر شارع الرشيد إلى سوق الصفافير، تلاحقها نظرات شباب، يتخيلونها مثلك فتاة أحلام.

بغداد حلمك، أيها الشهرياري النائم وسط مرضى هم من غير أهلها، لماذا هجرتها أصلا، وتركت الوظيفة، ومستقبلك وكل شيء وراءك، وحملت تاريخك وحاضرك. أحلامك وأمانيك، وركضت وراء سراب، ستبقى تدور في أوهامه، من دون أن تتعلم من تجارب عمرك الطويل، أن

هناك أحلاماً في الحياة لا يمكن تحقيقها، بل من المستحيل تحقيقها في مثل هذه الأيام، لأنها سراب، كلما اقتربت منها خطوة ابتعدتْ عنك ألف خطوة.

لماذا تركتها إذن؟.

ولماذا تُضَيّع وقتك باتباع الأوهام؟.

وها أنت تحن الى ماضٍ كان هو الآخر سراب.

من أي البلدان أنت؟.

والى أي البلدان تسير؟.

باد عليك الارتباك، في كل خطوة تأخذها، والمشاعر الحزينة في داخلك قد هزها النبض العاجز للقلب، وبعثرها انقسام الرغبة ما بين الانتظار في بقايا ذكرى، والرحيل بحقيبة سفر فارغة من أية ذكرى، ليكون المستقبل حقيقة، تقتلك القطوع التي تحصل في السلسلة الممتدة من حاضره إلى خزين الماضي المملوء بالذكرى، هذا هو الثمن الذي ستدفعه. سيأتي اليوم الذي تتوسل العودة إلى الماضي، ولن تجد فيه ما ينفع لرتق قطوع السلسلة، ولن تحظى بمن يتذكر.

سامر، عكسك تماما، لا يحن الى الماضي، ولا يتطلع إلى المستقبل، سوى من فتحة ضيقة جدا في باب الانتقام. إنتهى من ذهوله، وتذكر أن العراقي الذي أرسله عبد الجليل، وقد ناداه مرة واحدة بأبي عبيدة يعود من مهمة الانتظار في باب الدار، مصطحباً شاباً بعمر مقارب، (هذا عائد من جهة المحل الخاص بالبقالة، بيده أشياء. أشك أنه سامر، لأنه كان ماشيا باتجاه البيت. لقد استوقفه المجاهدون، وحققوا معه، فكان مرتبكا. جلبته إلى هنا

لتقرر أنت الحكم المطلوب). لم يكترث لمجيئه عبد الجليل، بل وعلى العكس من ذلك زادت حماقته، بعد أن عرف أن القادم قسرا هو غير المطلوب، وإن وجوده يزيد الموقف تعقيدا، وربما خطورة، فقرر إبقاءه، وأمر أبو عبيدة أن يعود إلى مكانه، وأن لا يجلب أحدا سوى سامر. ثم التفت بنظره الى القادم الجديد ملوحا بالسيف في وجهه الذي يرتعد خوفا، (ما اسمك ومن أين أنت؟).

(عمر عبد الكريم، طالب في جامعة الانبار، جئت من الفلوجة مع والديَّ وأشقائي الأربعة، للاقامة عند عمي، بعد أن تهدم بيتنا قصفا من الطائرات الأمريكية في معركة الفلوجة الثانية. أعمل بعد الظهر في محل لبيع الأقمشة في المنصور. عدت منه توا بسيارة (تكسي) أنزلتني بداية الشارع، وها أنذا أتجه إلى البيت الذي يبعد شارعين من هنا. لقد حل الفطور وهم ينتظرونني الآن).

الأمير، الذي يطمح بدافعيته العالية ليكون أمير الأمراء، في دولته الاسلامية الموعودة، يشك بكل ما قيل، يطلب تأكيدا، يثبت أنه عمر، وانه من أهالي الفلوجة، ويشير للسوداني الواقف إلى جانبه للقيام بتفتيشه، فوجد في جيب سرواله الخلفي هويتي أحوال مدنية. شرع بقراءة إحداها بصوت عال (حسين علي الموسوي) ثم توقف كمن أصيب بصعقة كهرائية. تدخل الأمير الذي لم يعط الضحية فرصة لتبرير وجودها بهذا الاسم الذي يوحي أنه من الشيعة، وبدلا من انتظار الجواب، صفعه بقوة أسقطته أرضا، أكملها بركلات متكررة على الرأس بحذاء عسكري عتيق، جعلت عمر صاحب الحظ العاثر يتلوى ألما، واضعا كلتي يديه على

وجهه البريء، لحمايته من تبعات الركل المستمر. يقسم بالله العظيم وبكتابه الكريم انه عمر، وانه طالب في جامعة الأنبار، وان هويته الثانية أصلية، وللتأكد من صحة القول يمكن مراجعتها، أو ارسال أحد إلى البيت للاستفسار من الوالد والعم اللذين ينتظرانه على الفطور، لقد تأخر في عودته خوفا من أن يخطفه حاجز، وحمل هذه الهوية المزورة خشية أن يذبحه أدعياء دين، نصبوا عدة سيطرات وهمية قريبا من نفق الشرطة، وداخل حي المنصور.... إجابات شائعة عند الوقوع في مأزق هذه الأيام، لم تقنع السياف، ولا جماعته الموجودين، والظرف لا يسمح لهم بالتقصي.

ما شأنهم به، والوقت يمر بسرعة؟.

المهم، مواصلة العمل لتأمين الغاية التي حضروا من أجلها اليوم، وما ينتج عرضا، خسائر جانبية مقبولة، سواء ضاع فيها عمر أو علي من الشباب. لا تقف عثرة أمام إقامة الدولة الاسلامية المطلوب إقامتها.... غاية تبقي عمر على حاله يتلقى المزيد من الضربات، وقد تلطخت ملابسه بدم لم يتخثر بعد للدكتور عامر، وحذاء عبد الجليل، الذي لم يمر على جلده الصبغ الأسود من يوم شرائه، أو من ساعة الاستحواذ عليه من أحد الضحايا العسكريين، باق على الرأس مستمر في تحريكه ضغطا بكل الاتجاهات. (لا بأس سنختبرك اختبارا بسيطا للتأكد من أصولك، ومدى التزامك بالشريعة الاسلامية اللازم تطبيقها من الجميع .... أمامك ثلاث مرتدات إختر إحداهن، نم معها أمام المجاهدين، هنا والآن، وستكون من الطلقاء).

الطلب غريب. تنفيذه منفر ومقزز، وعدم التنفيذ مهلك، يَصُدم عمر الذي تزداد توسلاته سعة من أجل النجاة، عندما وجد نفسه غير قادر على ممارسة الجنس مع ضحايا تشبه الأموات، ليس لأنه لم يمارسه مع امرأة طوال حياة قضاها في مجتمع مغلق يحرم الاختلاط، بل ويحرِّم ممارسته قبل الزواج، وبهذه الطريقة الحيوانية، وهو القادم من مجتمع الفلوجة المعروف بتدينه، وشدة تمسكه بالقيم العشائرية، ويستهجنها وان كان في موقف أسر لا يحسد عليه، لاسيما وان الثلاثة بقي من وعيهن نظرات، فسرها توسلات، واستجارة نسوة في مأزق خانق، والاستجارة بعرف الصحراء القادم من أطرافها عمر لازمة، تستحق التضحية بالنفس من أجل تحقيقها.

لا يمكن فعل هذا.

تحجج ببعض الآيات القرآنية عسى أن يتحسسوا تدينه ويعتقوه، وبحديث أوصى به الرسول الأعظم بالجار السابع، عسى أن يحترموا التزامه بالسنة النبوية، ويتركوه. ومع استمراره طلب الرحمة، عرض عليهم أي شيء يريدونه إلا الفاحشة بالجار. قبله الأمير، وغيَّر بسببه الرأي، حتى رفع حذاءه من على الوجه المغطى بالدماء (ساتفق معك، وسأقبل بضعف رجولتك، وسأبدل هذا الحكم بآخر سيكون فرصتك الوحيدة للنجاة. خذ هذا المسدس، اقتل واحدة فقط، واخرج على الفور، معززا مكرما إلى اسرتك التي ستفتخر بمناصرتك الدولة الاسلامية في جهادها ضد الخونة والمرتدين، لأن مجيئك هنا، ودخولك هذا البيت الذي نحن فيه لتنفيذ القصاص، ليس بالصدفة. إنه أمر الله، وعليك تنفيذه، بالعمل مثلما نريد، وفقا للأصول الشرعية). الأمر الجديد أقبح من سابقه،

بالنسبة إلى الطالب الجامعي الذي يمتلك ثقافة دينية جيدة مثل كثير من أبناء جيله، ومدينته في العشر سنين الأخيرة.... ثقافة دفعت بالشباب إلى التوجه الى الدين، تفتيشا عن الحلول المعقولة، لمشاكل عصرهم غير المقبولة، يحاول الإفادة منها الآن في أزمته جهد الامكان، بعد أن أحس أنها أتت بنتيجة إيجابية في التخلص من إثم الزنى، فكرر عدم استطاعته قتل النفس التي حرم الله قتلها. (اطلبوا مني غير هذا، سأسكت وكأني لم اركم، ولم أسمع بكم، ساترك هذه المنطقة الآن، وأعود إلى الفلوجة التي يعرف أهلها بأني عمر، أو أقتل جنديا أمريكيا إذا شئتم أن أقتله، مؤازرة للدولة الاسلامية، أو أزرع عبوة في المكان الذي تريدون).

كلام ساذج، من طالب ساذج، لم يخطر بباله أن الأمير حامل السيف صديق في الأصل للابن المطلوب ذبحه، قربانا للدولة المطلوب إنشاؤها، سلفية على أرض العراق، ولم يتصور أن هذا الحاكم بأمر الله، سبق وأن أكل من زاد هذه الأسرة التي يروم تدنيس شرفها الآن، وان بغضبه الحالي لن يقبل بغير القصاص وقطع الرؤوس، سبيلا لديمومة إمارته، وإقامة دولته الاسلامية. لا يقتنع إلا بها وسيلة مجدية، تشبع ما في داخله من عوز للانتقام. يضع حذاءه ثانية، على رأس الضحية التي أوقعها الحظ العاثر في وليمة القتل الجماعي هذه.

ينظر إلى عينيه المتورمتين، ويكمل الآية التي ذكرت قبل قليل سبيلا للخلاص من ارتكاب إثم القتل (إلا بالحق..... يا حيوان، تريد أن تعلمنا القرآن، إنك في تخاذلك هذا لا تختلف عن سامر في جبنه، وعليك ان تدفع ثمن امتناعك عن تنفيذ حكمنا الشرعي). رفع سيفه إلى الأعلى، ومع

كلمة (يا الله) ضرب عنقه بشدة، فصلت الرأس الذي تدحرج أسفل الطاولة عن الجسد، الذي بقيت أرجله تتحرك، حركات تشبه تلك التي تصدر عن أرتجاف أطراف الشاة المذبوحة، حتى استقر بعد ثوان بجنب جثة الوالد التي توقف النزف من شرايين رقبتها.

انتهت حياة عمر بلحظات، وانتهت معها آماله في التخرج، والعودة الى الفلوجة للزواج من ابنة العم التي تنتظر اكتمال المراسيم في الشهر القادم.

انتهت جميعها بسبب الالتزام بالقيم التي لم يبق منها شيء، وفي غفلة أو صدفة لم يتوقعها، ولا الثلاث اللواتي ينتظرن ذات المصير، وهن يشاهدن طريقة موتهن في أواخر الدقائق الباقية للحياة. وبسبب الحظ العاثر الذي سحبه مرغما إلى وضع لم يفهمه، وكذلك الثلاث الباقيات على قيد الحياة حتى هذه اللحظة، بل ومثلهم المستلقي على السطح، ومعظم أهل بغداد الذين يشاركونهم عثرة الحظ، حتى أمكن القول أن ذوي الحظوظ العاثرة في بغداد كثيرون، وكثيرة هي البيوت التي يدخلها عنوة عبد الجليل، وكثيرة هي السيطرات التي ينصبها الشقاة لصيد ذوي الحظوظ العاثرة.

هكذا هو الأمير الجليل في دولة السلف التي يفكر بها، لم يرف له جفن على موت عمر، ولم يتوان في إكمال مشروعه في التدنيس والتنكيل. أشار قَبلَ الشروع بالذبح على طريقته الاسلامية الخاصة، إلى أصحابه الواقفين في الزوايا أن يتوجهوا صوب الوالدة، والبنات بنية فعل الرذيلة.

المشهد المتوقع سيكون بالنسبة إلى الجاثي على ركبتيه في السطح، أصعب من الموت، لبشاعة حركاته الوحشية، سيصبح عبئا يصعب تحمله لما تبقى من العمر.

أين هو الموت؟.

عسى أن يأتي دون الذهاب إليه، كما فعل الوالد بشجاعة بات يحسده عليها، وتحسه من الداخل أنه جبان.

كيف يتم هذا؟.

الابن لا يشبه أباه في تحدي عبد الجليل، ولا دافعيته في إستعجال الموت مثل دافعية أبيه، ثم ان الحال بالنسبة لمن يجثو على السطح متخفيا، مختلف عن الموجود منصاعا لسيف خرج من غمده بقصد القتل غيلة.... لا فائدة من المقارنة والاحساس بالجبن يكبر في داخله، مع كل خطوة يخطوها الجناة صوب البنات.

يتقدمون وحوش. ما أقسى وقع أقدام تدنس صفاء الانسانية، وكأن السوداني الذي يتجه إلى الأم، خنزير بري، وكأن الأم التي استمرت في المقاومة تضعف، حتى يغمى عليها، فينتقل في غزوته إلى منى الفاقدة لوعيها أصلا، واشتباك الليبي مع شذى لن يطول، بعد أن تلقت طعنة سكين في صدرها الذي تعرى من شدة العراك.

كل حركة يتحركونها تثير الاشمئزاز، وكل قطعة ملابس تُخلع من على أجسادهن، تثير الرغبة بالموت.

المنظر لا يمكن أن يتابع من على السطح، شعور بالإعياء، رغبة شديدة بالقيء، خوف من نوع خاص، يرافقه عرق بارد. تَشل الحركة تماما، إلا من نظر يحملق بالسماء فيه عتب شديد، وعقل أدرك نصف المأساة، وتجاوز النصف الباقي بسبب التشوش الحاصل في ثناياه.

***

- 3 -

تجوالك في طرق الغابة الضيقة هذه، وإن وجدّتَ فيه مهربا من حيرتك، لن يلبي كل الرغبات، مثل ذلك جلوسك على جذوع أشجارها الميتة، وأستلقاؤك على حشائشها بعد أيام من مغادرتك المستشفى غريبا مثل أهل قريتها الذين هاجروا إليها قبل خمسمئة عام من اليوم. مسيحيون هاربون من بطش الكنيسة الكاثوليكية، يدعون التجديد، حفروا أركان بيوتهم الثلاثين فيها على حافة جرف صخري، بين الأشجار التي تحتضن البحر، فأصبح الرجال فيها والنساء والأطفال، وحيواناتهم والطيور والأشجار، يعيشون بتفاعل مع الطبيعة بسلام، يسعون العودة إلى جذورها البعيدة، وأصولها الممتدة دون الشعور بالاغتراب مع النفس، ولا الغربة من محيط يحصرهم بمنطقة تكثر فيها التعرجات والوديان والنباتات البرية والأشجار الضخمة..... غابة بكرٌ لم تعبث بها يد إنسان، ولم يتجاوز على حدودها أي إنسان منذ آلاف السنين، سبقت هؤلاء المهاجرين، ومئات أوصلتهم لهذا الزمن الجديد.

شُوهدتْ من قبل الوصول إليها في مستشفى النعمان ببغداد، كنتَ راقدا في ردهة غير الردهة التي رقدت بها هنا، كانت مخصصة فقط للرجال، ومن تحت سريرك تتخفى الزوجة الوفية خشية أن يطردها المسؤول، لأن الاختلاط بين المرضى غير مسموح في الأعراف التي دخلت مع حمى الديمقراطية.

تقفز بين الحين والآخر من مكان إلى آخر، لم يتعود فيه الراقدون مجانا، أن يشاهدوا سيدة أنيقة، ترافق بقايا رجل مريض في ليل بغداد الموحش بلا كهرباء.

تندب وحدتها في موقف صعب، وجميع الأولاد الذين أنجبتهم، وتأملت عونهم في أيام الشيخوخة والمرض، مقيمين ثلاثتهم بثلاث دول أوربية، لايعلمون ما يجري. أنت من دفعهم الا يعلموا، حماية لهم من تقلبات العراق التي بدأت قبل مولدهم بعقود.

تحس الألم في صدرها، سكاكين تُقَطعُ الأوصال، مثل ألمك الذي لا يطاق. تصرخ مع كل صرخة تخرج مؤلمة من القلب، لم تتوقف منذ ثلاث ساعات، تسأل المريض الراقد في الجنب، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

كيف توقفتَ عن الصراخ؟.

تقصد كل من يمر لابسا الزي الأبيض في المكان، طبيبا كان، أو ممرضا، أو مساعدا متدربا لطبيب، متوسلة أن تحصل على مزيدٍ من جرع الدواء المخفف للألم وإنهاء الصراخ، وإن تيقنت من كثر تناوله غير النافع، أن وقت فاعليته قد انتهى، أو إنه تقليد دواء صيني تم استيراده من تجار تعودوا استيراد الأرخص في غياب الفحص والتقييس.

وجهها الجميل الباسم أصبح شاحبا، مائلا للصفرة من شدة الخوف والتعب، وفقدان القدرة على التحمل. رقتها المعهودة غابت تماما في لحظة تواجدها بردهة الرجال الملئى بأجساد الواهنين. تستفسر عن اختصاصي في أمراض القلب، اي أختصاصي كان، لا يهم أن يكون فرحان باقر، أو الشعرباف، أو أيا من العظماء الذين باتت أعدادهم تتناقص يوما بعد آخر في بغداد.

عارضةً ما تملك من مدخرات ثلاثين عاما، قُسمت بين حرب وحصار، وما ورثته عن والد ميسور، توفي قبل سنين بسبب نقص الدواء النافع أيام الحصار. تعطيها في الحال لمن يخفف الألم عن صدر الحبيب.

لا فائدة من هذا العرض اليائس، والوقت قد تجاوز الثانية عشرة ليلا، موعد منع التجوال.

لا أحد يجازف بالخروج من بيته، وإن وُعِد بمال الدنيا، تركه يعرض ما فيه للسرقة من متربصين، والخروج منه يعرض من يرتكب حماقة الخروج إلى الموت غدرا أو بالصدفة.

لا بد من تحمل الألم، وانتظار الصباح حتى يأتي العامل المسؤول عن المولد الكهربائي، لتشغيل أجهزة الأشعة، وتخطيط القلب، وتثبيت التشخيص الذي على أساسه يمكن إعطاء الدواء، فالكهرباء غير موجودة.

والاختصاصي المخول بالقرار على نوع الدواء أصلا غير موجود.

والصيدلي هو الآخر غير موجود.

وكل ما ينفع في التشخيص الصحيح والتهدئة النفسية، والتخفيف الجاد من آلام الصدر، كذلك غير موجود.

لا خيار في مشهد الصراع من أجل البقاء على قيد الحياة، إلا الانتظار، وليس في المنظور بد، سوى الاستسلام لمزيد من الألم، ومزيد من المهدئات المتبقية، متناثر بعضها على طاولة طبيب ممارس بقيَّ خافرا، ومعبأ بعضها الآخر بأكياس ورقية مثلما كان يحصل قبل ثمانين عاما في مستشفى المجيدية الموروثة من زمن الاتراك العثمانيين.

انتظرْ، وَدَعْ الأمر إلى القدر، ودموع الزوجة التي قد تنقذ الموقف في لحظات أخيرة تسبق الفناء.

ذاك الهدوء الذي تعودته في بيتها الجميل، انتهى هذه الليلة. بدأت الأحزان تلملم مواجعها، وصرخات الدموع التي لم تتوقف منذ لحظة دخولها المستشفى تثير الأحزان، تتمنى أن تتناسى الأحزان، وتبقى قوية لكي تطمئنك، وأنت تصرخ من شدة الألم. هجرت تمنيات الابحار إلى عالم الحب والطمأنينة، وأنت تتلوى من الألم، فعزمت أن لا تعود إليها الآن، واستسلمت لنوبة بكاء. لا خيار لها سوى البكاء بصوت مكتوم، مستلقية على أرض الردهة، المشبعة برائحة العفونة من بقايا قيء، لم تمسسْه يد السيدة المسؤولة عن التنظيف، بعد أن غابت عن عملها ثلاثة أيام، بقصد الزيارة الجماعية لأضرحة الأولياء مشيا مع أهلها الى كربلاء.

هاتفها النقال لم يسكت، ولم تقبل أن يسكت لاستنفار المعارف، أو ممن بقي من الأصدقاء في بغداد التي غادرها الأقرب منهم تفاديا لغدر مجهول

في منتصف الليل، أو لتجنب إطلاقة كاتم صوت في وضح النهار، أو للتخلص من احتمالات حدوث انفجار بالصدفة.

الفجر الذي بزغ توا، لم يكن فجر بغداد الذي انتَظرتهُ مشرقا بعد ليل طويل مضاء بوهج الصواريخ، وأراده الدكتور عامر، العائد من عمله أستاذا جامعيا في ليبيا ربيعا، وتأمله الدكتور خالد العائد من منفاه في هولندا نعيما، قبل أن يحزم أشياءه، ويعود من حيث أتى جزعا من عجز الأحزاب الحاكمة، وتدافع السياسيين المشاركين في الحكم.

إنه بدايات يوم جديد، بذات الوقع القديم، أعلن عنها صوت الأذان القادم من جوامع قريبة، لا يأمن المصلون الدخول إليها فجرا، لاستخدام بعض غرفها مخازن سرية لاخفاء الأسلحة، والمتفجرات، وقاعاتها منابر تعليم المجاهدين الوافدين من خارج البلاد فن الاغتيال والتفخيخ.

بدايات يوم لم يعد مطمئنا لأهل بغداد، ولم تعد أصوات التكبير التي تنقلها مضخمات الصوت، المنصوبة على المآذن مسموعة من رواد الصلاة الأولى في الفجر، بعد أن شوهها أزيز الرصاص، وغطت عليها الانفجارات، ونداءات الاستغاثة وأعمال التحريض.

مع هذا فإنها بداية يوم يحسب جديدا، أعلن عنه صوت الأذان المنبعث من مأذنة الجامع القريب من المستشفى، وأكده الضوء المتسرب من زجاج الشباك المكسور، وستارة ممزقة، لا تخفي عورة الأهمال والتقصير، في هذا الصرح الطبي الحكومي المشيد وسط الاعظمية.

الألم باق كما هو، وكذلك الصراخ، والدموع والأشجان. مرضى يئنون، ومرضى ينامون دون اكتراث، وآخرون ينتظرون نوبة نواح على زميل يرقد

في الجانب، لا أمل له في العيش وسط هذا الاهمال، ونقص الأدوية، وكثرة الغبار، وانقطاع الكهرباء.

صديق قديم يلبي إلحاح الحبيبة، وكثرة التوسلات، يصطحب استشاري جراحة القلب والشرايين، مع الدقائق الأولى لرفع الحظر الخاص بالتجوال، استمع إلى شرحها بعد أن استنفرت كل الحواس، واستخدمت كل احتياطي الطاقة النفسية المتاح، أجرى فحصا سريعا على فانوس وحيد، ينير الردهة بأَسرَتها العشرة. لم يتكلم عن الاشعة والتخطيط، عندما نادى الطبيب الخافر، ولامه على التباطؤ، والتقصير في تشخيص الحال التي تشير إلى القيء، وشدة الألم ومكانه، كونها جلطة قلبية واضحة. كتب دواءا وإلتفت صوبه ثانية، (لو كنتم قد أعطيتموه هذا الدواء في الساعات الأولى، لما حدثت كل هذه المضاعفات) ثم همس في اذنها الصاغية، دون أن يَسمعَ تعليق الطبيب الشاب بعدم وجود الدواء، (أنتم محظوظون، وأنتِ سيدة عظيمة، بوقفتك طوال الليل التي أسهمت في دفعه بعيدا عن الانهيار، وبإلحاحك على طلب اختصاصي في الموضوع، إذ لو استمر الحال على ما هو عليه ساعة أخرى، لحدث الأسوأ. سيهدأ في أقل من نصف ساعة، بعد أخذ الدواء الذي لا بد وأن يكون أجنبيا، يجلب من خارج المستشفى، من صيدلية بيت الدواء في شارع المغرب، وسَيَعبرُ الأزمة. أنصح بنقله خارج العراق لإجراء القسطرة، ومزيد من الفحوص إذا كنتم متمكنين، لأننا هنا وكما تلمسين نعود بالطب إلى أيام الحجامة والحلاقين).

أن تترك البلاد فورا، قرار لم يكن سهلا في أيام عسيرة، تتلقى فيها ثلاجات الطب العدلي ببغداد وحدها بين خمسين إلى مئة جثة مجهولة الهوية يوميا، ومع ذلك جاء في وقته.

لابد من الرضوخ إلى رأي الطبيب الاستشاري وترك البلاد، مغادرا على أمل العودة، أو مودعا دون عودة.

لا فرق في هذا عندما تُنقل في سيارة إسعاف، (كانت من بين المهداة إلى وزارة الصحة ضمن برامج المساعدات الدولية لعراق صُنف فقيرا، وهو طافٍ على بحيرات سموّا نفطها بالذهب الأسود. نصف أجهزتها لا يعمل بسبب عدم تيسر الخبرة، ونصفها الآخر تعطل بسبب جهل العاملين وإهمال المسؤولين).

ولا فرق في ذلك عندما تُستقبل في اليوم الثاني بمستشفى من نوع ثانٍ. (همر سمث) المستشفى اللندني المعروف. الرقود هذه المرة على سرير حوله أجهزة متعددة تؤشر بعض ردود الفعل، وتقيس كل الاستجابات الاتية من الجسم.

قربه ممرضة بوجه أبيض وردي يفيض بشرا. ناصع مثل بياض صدريتها الأنيقة. كل حركة منها تلوح بالطمأنينة. نور عينيها هادئ، ينطق بالرغبة في منح العطاء. تُقدم الدواء بمواعيد لا تتأخر دقيقة، ولا تتقدم أخرى. تفحص الحرارة وسرعة دقات القلب ومعدل التنفس وكم الاوكسجين في الدم. تلبي كافة الطلبات وابتسامة ندية لاتفارق محياها الجميل. تُشعر الراقد من أي بلد كان، وبأي لون يكون، أنه إنسان.

بجانبك سرير السبعيني أندرو، الاسكوتلندي غريب الأطوار، في دعوته بإلحاح إلى ترك الحضارة ومآثرها، والعيش بعيدا عن ضغوطها، بلا كهرباء ولا هواتف نقالة ولا مكائن ومعدات. اطمئنان النفس وراحتها من وجهة نظره الأهم، والعودة الجادة إلى الطبيعة تتكفل بكل شيء، كما يبين تفسير قومه لما مكتوب في انجيل مازال بحوزتهم منذ وصولهم، طائفة مسيحية من الآميش، سكنوا هذه القرية الاسكوتلندية على حافة الغابة المطلة على بحر الشمال.

المستشفى الراقد بها وسط لندن، لا حاجة بها إلى وجود الزوجة، التي لم تأتِ بسبب صعوبة الحصول على التأشيرة في الوقت الحرج آنذاك، ولا حاجة لمرافقين ولا إلى أولاد قريبين، فالردهة الخاصة بأمراض القلب التي تم الاستقرار فيها، تحوي ستة أسرة، تفصل بينها ستائر من قماش، لا تُسمع فيها الأصوات، ولا وقع الأقدام، كل شيء يجري بالهمس، حتى صوت التلفاز المشترك، لوجود سماعات خاصة للجميع، لا تتوجس الزوجة من دخولها في التوقيتات المحددة، ولا يخشى الزوج من الدخول. مرضاها خليط من النساء والرجال، وكأن الفرق بين الجنسين بدعة، وُضِعت بقصد التمييز، أو التخويف من ارتكاب معصية، لا وجود لها خارج عقول الخائفين.

الممرضة فيها مسؤول أول، يأتي بعدها الطبيب الممارس، ومن ثم الاختصاصي الذي لا يشاهد، إلا في أوقات الشدة، والحاجة القصوى. كل إجراء مكتوب ومثبت في طبلة المريض، منذ اللحظات الاولى للدخول حتى آخر إجراء قبل الايذان بالخروج. وكل شيء فيها يُذَكّرُ بالفرق بينها،

وبين تلك الموجودة في أرض الأحلام. فرقٌ لا يقتصر على الطب الذي تخلف عقودا، ولا على التحضر والرقي والثقافة، والتنشئة التي عادت إلى الوراء عدة قرون. بل وعلى النفس التي تبدلت عاداتها وتقاليدها ومفاهيمها قريبا من الانحراف.

هل مازلت تحلم؟.

متى تتوقف عن أحلام بات الطريق إلى تحقيقها طويلا، وربما لم يعد ممكنا؟.

ألم تتنبه إلى اليوم الأخير في المستشفى، بعد إجراء القسطرة وتثبيت التشخيص (انسداد في الشريان التاجي وتلف في عضلة القلب بسبب التأخر في العلاج).

الحياة هنا عيشها سريع، الناس في الشوارع تمشي بشكل سريع، كل شيء يمر ويعبر ويبدأ وينتهي بوقت سريع، إلا الغابة فالاحساس بزمنها بطيء، والمشي فيها بوقع لا يهم القادم هاربا من الشرق ان كان بطيئا أو سريع، لأن الوقت لا يعنيه، وسرعة المشي لا تهمه. الدقائق التي تمر تؤكد له مرة أخرى ان لون البشرة، وتقاسيم الوجه، وردود الفعل لهذا العراقي الموجود قريبا من وجوده مطمئنة تجمعهما روابط محسوسة لا يمكن تجاوزها.

فكر لحظة. توقف عن التفكير. ثم أحس أن ما يجمعهما مشاهد حياة تفوق الروابط التقليدية التي تجمع غريبين، بينها حالات التشابك بالأيدي والهراوات والبنادق والمفخخات، وتبادل السباب بين الأشقاء الذين استبدلوا المودة بالحقد، والمصافحة بالرصاص، وسلام الله بالطعن تحت

الحزام. وبينها صور بأبعاد ثلاثية لمن ينهشون لحم بعضهم بعضا، ولمن تركوا الشيمة والرفعة والرحمة، لينساقوا أفواجا خلف أهواء النفس وفتن السياسة، ولمن استبدلوا الدعاء لأن تمطر السماء مطرا يغسل القلوب، بأعمال الضرب والقتل والتهجير، رضوخا لأهواء الغريزة، وتنفيذا لأوامر تأتي من سياسيين، وبعض رجال دين، وتجار حروب مستفيدين، حنّوا أياديهم بالدماء. وبينها أيضا مشاعر كره مشتركة لأولئك الذين يقفون ذلا بين أيدي الملوك والرؤساء والأمراء، يستجدون السلطة، والمال من أجل مجد خاص بهم، وذبح الشريك الماشي معهم وسط الطريق... هناك الكثير من المشتركات، في هذه الغابة، وكذلك في العراق. الا ما يتعلق بوقع الزمن، وبمتعة القصص التي يرويها همسا السيد أندرو عن فرار أجداده من وسط ألمانيا، وبنائهم القرية شمال أسكتلندا، ببيوتها الثلاثين بترتيب حماهم من الملاحقة آنذاك، وإلحاحه على زيارتها، والعيش فيها لأغراض النقاهة، وإعادة ترتيب الأفكار، التي تراها أنت ارتباطا بالماضي الاصيل ويمر على ذكراها هو مرور الكرام.

اليوم الأخير في المستشفى مر بوقع اسرع، في اللحظة التي عاودت الظهور فيها السيدة الاربعينية الشابة، بتفاؤلها المعهود، وابتسامتها الرقيقة بلا حدود. عندما أطلت هذه المرة في هذا اليوم ببنطلون جينز، وقميص مخملي أبيض، يخفي فقط ذلك الجرح الذي أحدثته العملية في صدرها الحنون، تستعد إلى المغادرة دون تأخير. وعندما أصرت على الا تغادر، قبل توديع زملائها في الردهة التي أمضت فيها شهرا كاملا، وكانت أقدم الموجودين رقودا. تنقلت بين الجميع. سألت عن حالهم، وشجعتهم على

التفاؤل، وأخذ الموضوع بروح رياضية، من دون أن تنسى الاستفهام عن أصول بعضهم، لأن الراقدين مختلفة ملامحهم، لا يشبه أحدهم الآخر، منهم الأفارقة، والآسيويون، والعرب والأوربيون، وأبناء البلد الأصليون.

قبَّلتْ الرجال من دون تفريق، وعانقت السيدات دون تمييز. لم تسأل عن الشيعي منهم، لتطيل تقبيله، ولا عن السني، لتتركه من دون تقبيل.

توقفت عند السرير طويلا هذه المرة، وكأنها تودع حبيبا، تعلم أن صاحبه العراقي سيغادر هذا اليوم أيضا، أصرت على نهوضه مؤكدة أن مغادرة المستشفى تتطلب تجاوز الكسل والخمول. فتحت أزرار قميصها الأبيض، لتظهر آثار جرح خلفته العملية غائرا بين ثديين كاعبين، يستحقان شاعرا من زمن الجاهلية للتغزل بهما في عصر الانترنت (انهض من سريرك سيدي، إنها مجرد كبوة، ألم ترني أتجول متفائلة، وإنا أحمل صمامًا صناعيا في قلبي المتعب منذ الولادة، وصدري الذي قسمته الجراح نصفين. سعيدة أنا بالعيش حتى هذا العمر، وسأكون أسعد عندما أحس أنك تجاوزت وعكتك، ووخزات أحلامك وتعب السنين). ولمزيد من التعاطف، وتلطيف الأجواء، والبسمة التي لا تفارق شفتيها الجميلتين، أكدت أن لديها صديقا حميما، اتفقت وإياه على الزواج بعد شهر من الان، واتفقا على إنجاب طفل بعد أن سَمحَ لهما الطبيب بالانجاب، ثم عاودَتْ الاصرار على النهوض، لأنها لا تريد أن تنحني، أو لأنها لا تريد أن تبقي إحساسا بالمرض في داخل العراقي المريض، وهي عارفة أنه هارب غريب.

قدمتْ قبلة الوداع بثقة لا تشعر المقابل سوى بمتعة الوجود، وباستحقاق الحياة أن تعاش في أي مكان، بكل مافيها من بهاء وجمال، وآهات وأنين.

موقفٌ في لحظته يستحق المقارنة، وتذكر أيام بغداد، هروب من واقع حال أم هروب من مواجهة الفشل في تحقيق الأحلام. مع هذا لا مفر من اجترار الأفكار وإعادة الذكريات في هذه البلاد البعيدة عن بغداد، وأهل بغداد الراقدين تحت رماد الفوضى والاحتراب. لابد من تذكرها هنا والآن، والعود بزمن التذكر إلى ستينات القرن الماضي التي لم تفكر فيها، ولم يفكر أحد غيرك أيضا من العراقيين بالهرب. هكذا هو الانسان يعود إلى الماضي بحنينه والذكريات، سلسلة يريدها الا تنقطع، كلما واجه مصاعب في الحاضر وبعض العثرات... تَصوّرْ لو حدث الذي أنت فيه الآن، بتلك الأيام التي تمني نفسك بالحنين إليها، أيام الشباب، وقد استَوقَفك أحدهم دقيقة واحدة، وسألك عن فكرة التواجد في هذه الغابة، وترك الوظيفة، والبلد الذي أحببت، الا تقول له وأنت منفعل بشدة، انك مجنون؟.

ربما يكون فعلا مجنون؟.

ومن قال غير ذلك؟.

مجنون مع سبق الاصرار.

ومن يصدق حكاية الهرب التي أخترتها مرة أخرى، مجنون.

والأصدقاء في هذا البلد، وأولئك الذين وافقوك مجانين.

وهذا الظل العراقي الذي يخيم على الجميع، ويفزعهم دوما، مجنون مثلكم.

أنا، أنت، هو، هن، هم، مجانين.

الكل مجانين.

ألم تلحظ في عراق التغيير حضور الشاب الليبي مفتاح التاورغي، حاملا تاريخه وحاضره ومستقبله من أقاصي المغرب العربي الى مشرقه الاقصى بغداد الرشيد، يفخخ نفسه بالديناميت، بقصد التفجير، وسط جنود تطوعوا لخدمة الوطن حديثا، وكسب لقمة عيش كريمة، هربا من عوز وفقر وجوع، يُسأل عن أسباب قيامه بقتل نفسه والأبرياء، بعد فشله في إتمام المهمة، فيجيب ببساطه، (أنه يبغي تناول طعام الغداء مع الرسول، وصحبه الكرام).

فهل يُصدق هذا؟.

من يصدقه بالطبع، مجنون.

في هذه الحقبة عينها، يظهر السيد صالح عبد الحميد، ذلك السياسي المعارض، وقد سَجلَ مواقف بالضد من صدام حسين على أرض الجنوب العراقي، وقاتل بشراسة في أهوار الناصرية، وفي الانتفاضة الشعبانية عام 1991، ونشط في أجهزة الاعلام، وساحات السياسة الدولية بعد لجوئه إلى رفحة، واستقراره في أميركا، ودعوته لإقامة مجتمع العدل والمساواة بأمانة. يأتي داخلا بغداد منتصرا مع كثير من السياسيين المعارضين بعد 9/ 4/ 2003، من أجل إعادة بناء العراق الجديد وتعميره، فينتهي نضاله في حضن زوجته الذي أستسلم سريعا لأطماعها، قبل الشروع بالخطوات الأولى للبناء، وسمح لها بالاستحواذ على الموجودات، والمساعدات المالية للحزب التي حصل عليها في فترة المعارضة وما بعدها. وضعها في حساب

خاص بها، تَصرُفُ منه لتمائم سحر تحميه من عيون الآخرين، وتبعد نساء الغفلة عن طريقهما الجديد، وبالمرة تقربه لرجال السياسة المهمين. والزملاء السائرون معه في العربة غافلون، يتفرقون بين الميسورين، يفتشون عن عون مادي لحزبهم الوطني، قبل الأفول بسبب شحة التمويل.

ألم يكن هذا نوعا من الجنون؟.

ماذا تسمي أو تصف اتفاق النقيب هاني محمد سعيد من الشرطة الاتحادية مع إرهابيين يرومون تدمير بغداد، وقتل نسائها وأطفالها، على إيصال سيارتهم المليئة بالاسلحة، والمتفجرات، تحت حراسة دوريته من بوابة بغداد قريبا من الكاظمية، حتى اللطيفية مثلث الموت، لقاء ألف دولار، وزع نصفها على أفراد الدورية، واحتفظ بالنصف الآخر رزقا حلالا؟.

ألم يكن من الانصاف، وصف هذا النوع من التردي بالجنون؟.

ومن يصدقه في هذا الزمن، وباقي الأزمنة غير المجانين.

زمن بائس عقيم، فيه الكثير لو أخبرك أحدهم عنه في اجتماع سياسي، أو في مناقشة بحث علمي، أو جلسة سمر على ما تبقى من شواطئ دجلة في شارع (أبو نواس)، التي غادرها أولئك الجالسون الحالمون، فهل تصدقه؟.

وإن صدقت اللامعقول فيه وفي غيره، ستكون إما مجنونا حتما، أو مرشحا للجنون

لكنك وعلى الرغم من هذا الوصف بالجنون، كنت شاهدا عليه، يوم عدت بعد السقوط حالما، ويوم حزمت حقائبك بعد الاحتراب الطائفي

هاربا هذه المرة بسيارة إسعاف، لجزعك من أن سقوط صنمها سيعيد لحلمك الحياة، هذا الحلم الذي تغربت من أجله سبع سنين عجاف قبل السقوط، وأخرى مثلها بعده، وما زال طريق الغربة أمامك مفتوحاً.

الجزع هنا لا ينبغي أن يكون واردا، والوداع في مستشفى همر سمث له طعم خاص، انتهى وكأنه لم يبدأ، والشقة المقصودة لغرض السكن ليست بعيدة، وسيارة التكسي جاهزة، والوقت المستغرق للوصول يكفي لتذكر تفاصيل السقوط السريع لبغداد، والفرص السانحة، ما ضاع منها وما لم يضع. المهم أن تمسك بإحداها، أو تمسك بك، لافرق، والأهم هو أن المحاولة كان يجب أن تبدأ من بغداد، في أول أيامها من الزمن الجديد الذي تم انتظاره طويلا، وَرسُمت له الخطط كثيرا، وتم تأمل فجره الجديد وأحلامه الوردية.

الفرص التي أردت أن تمسك بها قد انتهت، وفجر بغداد الذي حلمت به، مع بقية الحالمين من أهل السياسة والمعارضة وطالبي الحرية، سيكون بعيدا جدا. أبعد من تلك البلدان التي توزعتم عليها لاجئين ومهاجرين.

عيبك الوحيد هو في عدم إدراكك الحقيقة، التي كان من السهل إدراكها منذ وصولك إلى بغداد، أثناء العودة إليها من الهرب الأول يوم 24/ 4/ 2003 عبر العاصمة الاردنية عمان، بعد الانتشاء بالسقوط، يوم توقفتْ إلى جانب سيارتك، سيارة حمل كبيرة، لعطل فيها، أو رغبة من سائقها في إثارة أزمة طريق أمنية، أو سياسية، أو لتفجيرها عن بعد لأغراض إرهابية.

لا أحد يعرف النوايا في أيام الفوضى والاضطراب.

ولا أحد في هذ الموقف الشائك، يفهم أسباب التوقف الكلي للسير على سكة القطار التي تقطع طريق بغداد - الرمادي، قريبا من حي اليرموك، وتشابك السيارات بجميع الاتجاهات.

ولا أحد يصدق أيضا قيام ذلك الشاب الأسمر برفع مسدسه، وإطلاق إطلاقتين في الهواء، قبل توجهه إلى سائق سيارة الحمل، ليفتح بابها ويسحبه خارجا، من دون الاهتمام بهيئته (سائق سيارة مسكين، أو إرهابي مريب)، ومن دون الالتفات إلى تاريخ صنع سيارته، الذي يرجع إلى نهاية الخمسينيات، وما يعنيه من احتمالات عطلها في كل متر تسيره على الطريق العام، ويضربه بقبضة مسدسه، (طارق) عراقي الصنع، على رأسه الأشيب، لينزف الدم بغزارة. ومن بعد انتصاره في معركة كانت غير متكافئة، وشعوره بالعظمة الجوفاء، سأله بحماقة.

لماذا تسد الطريق؟.

لكن عدم معرفة النوايا والأسباب، وحتى عدم التصديق، لا تحول جميعها دون افتراض إدراك الحقيقية، التي تدور حول عدم إمكانية تحقيق الأحلام في القريب كما كان متصورا، ومشهد الاعتداء على السائق الكهل، الذي حصل بحضور الفرحين بإزاحة الدكتاتور، والمتوجسين من حصوله، والذي صعق نفوس الجميع، قد أفصح عنها حقيقة مؤلمة تنبئ بالمزيد، وأزاح في ذات الوقت وشاح الغشاوة عن كم الانانية الفردية، ومقدار الايثار المفقود من هذه النفوس المتعبة.

مشهدٌ، وعلى الرغم من قسوته، وكم الظلم الحاصل فيه لم يحرك الضمائر، ولم يدفع أحدا للوقوف مع السائق الأشيب المظلوم، وهو يتلوى

من وطأة الضرب على رأس مكشوف، وكأنه منبوذ في بداية عهدٍ بشرَ أصحابه انه سيكون خال من الظلم.

هل ان الضمائر ماتت، أو أن الحضور مذهولون، أو يتلذذون بمنظر الدم الذي صبغ شعر الرأس ولحيته البيضاء، وغطى الثياب الصفراء العتيقة بلون أحمر داكن؟.

جميعها وارد في هذا المشهد المنفر.

أنت الحالم بالفجر الجديد كنت معهم، لم تفكر مثلهم بالوقوف مع الضحية، وحلمك مازال معلقا على سطح الذاكرة المشوشة.

الموجودون في موقف الاعتداء المهين، متفرجون مثلك، أشبه بالمشلولين، لا يفهم سكوتهم عن الظلم المفضوح، واحتجاجهم المستور، ولا يفهم تبعثرهم الحاصل بعد سماع الهتاف المدوي من الشاب قاطع الطريق، بعد إتمام رغبته الجنونية في إسقاط الضحية مغشيا عليها(تسقط الديكتاتورية).

لقد سقطت مع سبق الاصرار في موقف الفرجة الحاصل عتبات الدكتاتورية، وسقطت معها معاني الحرية، واختلت مفاهيم الديمقراطية، وتشوشت الآمال لحظة قيام الشاب بإطلاق العيارات النارية، وابتعاد المتأملين بفجر بغداد الأصيل عن الضحية، ومنظر السيارات القادمة، والذاهبة على نفس الجانب من الطريق، وتدافعها لفتحه سهلا لمعتدٍ وسط الزحام، ما يُقرأ من صفحتها المشبعة بالدم، أنها بداية شؤم واضحة المعالم، لا يفترض بمن شاهدها أن ينتظر تحقيق حلم كبير بغد أفضل.

الجمع الغفير انفض سريعا مثلما تجمع سريعا قبل دقائق معدودات، وكأن شيئا لم يكن.

السائق المجني عليه ممدد، فاقد الوعي وسط الشارع، تريد أن تحسب إسهامك في نقله إلى الرصيف مع بعض الشباب الذين تطوعوا، حسنة، قد تقلل من وطأة السيئة التي سُجلت لمجرد الاكتفاء بالفرجة.... لكن أية حسنة هذه؟.

إنك ومن تطوع من المتعاطفين المؤيدين للعهد الجديد، ومن حاول إقناع نفسه داعما للديمقراطية، داعيا لحصولها، والمشاركين بسقوط الديكتاتورية، والذين أبدلوا ثيابهم القديمة بأخرى جديدة، جميعكم لم تدركوا حقيقة عدم بزوغ الفجر الجديد. أما من حاول التطوع لنقله إلى الرصيف لمجرد الرغبة بتجنب الآلام التي قد يسببها الضمير قبل موته تماما، أو لفتح الطريق أمام سيارته التي حشرت مع باقي السيارات سعيا منه لحضور محاضرة عن النظام الديمقراطي الجديد، أو بلوغ موعد غرام قريب، فجميعهم لا يهتمون بالفجر الجديد إذا ما بزغ ثانية، أو غاب إلى أبد الآبدين.

لا أمل في بلوغ المرام، وبزوغ فجر بغداد الجديد مجرد أوهام، وسيارة التكسي التي تقلك من باب المستشفى اللندني، لم تتأخر في الوصول الى باب العمارة التي تسكنها، لكنك تأخرت حقا في الهرب، وفي إدراك الحقيقة. مع ذلك لا تبتئس مما حصل لك في عملك، وفي رقودك بمستشفى النعمان، لأن الذي حصل للسيد سامر، المستلقي على العشب قريبا منك، لا يمكن تخيله إلا من المجانين، ولا تيأس من التأخر في الهرب،

ولا ينبغي الاهتمام لشأنه في بلاد، ستبقى طاردة لأهلها حتى بزوغ الفجر الجديد....متى؟

لا أحد يعلم.

أو سيعلم لكن بعد حين.

****

- 4 -

الجلوس على أرض معشبة بعد عناء مشي طويل، في الغالب مريح، ومشاركة جيلين مختلفين للماضي القريب هو أيضا مريح، يقصر المسافة النفسية بينهما، ويخلق أجواء ملائمة لاستمرار الجلوس والبوح بما هو مكبوت. قبل أن يهم سامر بتعديل وضعيته عاود السؤال عن الأصل، وأسباب الوجود في مكان بعيد شبه معزول، وفيما إذا كان القدر هو الآخر قد تدخل سلبا مثلما فعل في حالته، أم إن الأمر مخطط له ومدروس مسبقا.

الاجابة مبهمة، لم تكن سلبية مثيرة للاحباط، بربطها في عجلة القدر، الذي يظنه عاملا يقذف بضحاياه خارج المألوف، ولم تكن إيجابية منعشة للآمال، بوصلها في تطلعات السياحة، أو الاستكشاف.... رمادية، تم التعود عليها من أيام بغداد التي بلغت في السنة الرابعة للتغيير حدا لا يستطيع إنسانها الكشف عن هويته الأصلية، فيلجأ إلى حمل إثنتين في أحدهما اسم علي وفي الأخرى عمر، واكتسب من شدة الخوف، خبرة التعرف على أصول الجهة التي تطلبها، مليشيات شيعية كانت، أم سنية أو قطعات عسكرية حكومية، تكمن قريبا منها قوات أمريكية. الجميع

يرتدي البدلة العسكرية الرسمية، ويركب السيارات العسكرية الأمريكية.... رمادية هي الأسلم.

فَهِمَ منها، أنك الموجود أمامه من جيل أبيه، عراقي، ترك الاقامة في لندن العاصمة المزدحمة بعد خروجه من المستشفى بأيام. استنتج أنك مثله هارب، بعد أن سمعك تتكلم عن مغادرة البيت الذي كنت تسكنه وسط لندن، وصاحبه العراقي الذي اشتراه في ثمانينات القرن الماضي، من سيدة مسنة بسعر منخفض اثناء أزمة عقار خانقة، وقد حوّره على الطريقة العراقية، إحدى عشرة شقة متطابقة كعلب الكارتون، ليسكن فيه عراقيون غالبيتهم هاربون، بشروط ميسرة، وخدمات شبه معدومة، يقارنون في لقياهم بالحديقة الخلفية، أو عند الباب الخارجية، حال خدمات صاحبهم العراقي في هذا البيت، بما يقدمه سياسيو بغداد في عصر الديمقراطية، وسرعان ما يتفقون على غير عادتهم، إنه مرض العجز عن تقديم الخدمات أصيب به العراقيون، ينتقل وإياهم عن طريق العدوى أينما يكونون.

تأكد أنك تشاركه الصور والمشاعر وبعض الأحاسيس، عندما تكلمت بحسرة عن الصخب الذي لا ينتهي في هذا البيت العراقي، وشاغلي العلب الذين لا يتقيدون بتحديدات الضوضاء، وبالوقت الذي يفرضه القانون المحلي، مثلما يفعل البريطانيون الأصليون، والمقيمون من غير الأصول العربية، وكأنهم لم يغادروا العراق فكريا.

وعن الأزواج الملتزمين شرعيا، بتهامسهم بعد خفوت أصوات أطفالهم التي لا تسمع بعد الساعة الثانية عشرة ليلا، حتى أصبح همسهم وصلاتهم

وغزلهم، وباقي الحركات غير الشرعية تنتقل إلى العلب الأخرى في الجهات الأربع عبر جدران الفصل الخشبية.

وعن النهار الذي يستمر فيه العزاب بنومهم حتى حلول ساعات العصر، وأحيانا حتى مجيء الليل من جديد، لأنهم لا يعملون، ولا حاجة لهم إلى العمل، فالدولة تتكفل عيشهم وسكنهم بدعوى العجز والمرض، وهم في أعلى مراحل الشباب، يزعجهم رنين الهواتف النقالة التي لا تسكت، وزعيق الأطفال المحشورين في العلب البلهاء، وشتم الآباء حتى حلول منتصف الليل، لتبدأ دورة حياة مختلفة تماما يكون فيها البعض فحولا، والبعض الآخر مستمتعا بإثارة التنصت على فحيح الفحول.

وعن النقاشات التي لا تتوقف في هذا البيت العراقي المزروع وسط لندن، والاختلافات التي تحصل حينها، سحر أسود يسحب كل الأطراف، لأن يختلفوا كل مرة حول الولاية في الحكم الاسلامي، وأحقية الخلافة قبل 1400 عام، وحكم المراجع الدينية في الصوم أيام الصيف الطويلة، وكيفية الالتزام بتناول اللحم الحلال، وتحديد الأهداف غير المعلنة للتدخل الاجنبي في المنطقة والعراق، ومن يقف متخفيا وراء الربيع العربي، وحدود الوضوء، وبداية الأعياد، وَمَن تسبب في تدمير العراق.

صدام حسين أم الذين أعقبوه مباشرة؟.

وأمور أخرى يبدأ الاختلاف في جوانبها يكبر في كل جلسة نقاش تستهوي الجميع، وإن توقفوا قليلا في الباب لأخذ البريد القادم قبل الظهر، حتى أصبح زادهم الوحيد في اجتماعاتهم السياسية الاستعراضية، وتجمعاتهم العائلية الروتينية، وجلسات الترويح لتدخين الاركيلة شبه

الدائمية. نقاش عقيم، نهايته مطمئنة، بخاتمة تقليدية يدعي فيها الجميع دونما استثناء، أنهم ليسوا طائفيين.

نعم إنكما تتشاركان في العديد من الأشياء. أكثرها وضوحا، ذلك الذي يتعلق بالمواقف من الدم المسفوح، والحرائق المشتعلة، وسبي الحرائر، والخصومات المنفعلة، ومعالم المقابر الجماعية التي تحوم أرواح الأمهات فوق صراخ المحشورين داخلها ظلما، والتاريخ الطويل للخلافات والسجالات، وعبادة الأصنام التي تُصنع للحكام، وتعظيم من يحول الدين أو الشَرعْ عن تجسيد هيئته صنما، بألقاب يقترب نطق أحرفها من عبادة الأصنام، والرقص على مسرحه الخاص، وأتباعه في الجانب الثاني غير المشاهد من المسرح، يُعَلِمونَ بعض الراقصين المتبرعين، كيف يدفنون ضحاياهم، وكيف يشاركون بإعدامهم ويمزقون أشلاءهم، وكيف يمنعون قراءة الفاتحة على أرواحهم، خانوا حضرة مولاهم صنما، أكبر كل الأصنام.

الأجابة رمادية هي أم بيضاء كانت واضحة فيها الأسباب التي أقنعته، انك الراقد على العشب قد تركت لندن مؤقتا، وقصدت قرية الآميش القريبة، لترتيب الأفكار، والترويح عن النفس من خلال المشي أغلب أيام الاسبوع. ودفعته وهو القلق، الشكاك إلى الاسترخاء، والتنفس عميقا، وبث الزفير بحرقة يحس المقابل لسعة حرارتها، فتدفعه الى التمدد على العشب ليستريح.

أي صدفة هذه التي جمعت شخصين عراقيين، أحدهما تجاوز الخامسة والستين، قَصدَ هذه المنطقة النائية بعد خروجه من المستشفى قبل أيام

ليعيد إلى القلب شيئا من صحته، والمقابل شاب في مقتبل العمر لم يتجاوز الخامسة والعشرين، قصدها، أو بالحقيقة تاه فيها لا يعرف مقاصده من المجيء، ولا يفكر بحاضره والمستقبل، مشغول فقط بوهم الانتقام.

القلق في داخله لم ينته، عدّلَ من وضع جسمه المستريح على العشب، ليتكئ على بقايا جذع شجرة صنوبر، هرمت فسقطت في القريب، ساقاه ممددتان إلى الأمام تتحركان من دون سيطرة، وضعَ إلى جانبه حقيبة قماش أسود كان يحملها على ظهره، فيها احتياجاته لمواصلة السير والتجوال. أخرج قنينة ماء. قضى على ما تبقى فيها برشفة واحدة. رماها بين الأحراش مثلما يفعل شباب بغداد مع زجاجات البيرة بعد احتسائها خارج البارات أيام زمان. التقط أنفاسه ثانية، واستفسر مرة أخرى عن سر الوجود هنا والآن، وكأنه غير مقتنع بالاجابة الاولى، أو إنه مصاب بداء النسيان.

لم يكن في الأمر سراً، ولا دوافع مخفية، إنه بسيط، وأبسط مما يمكن تصوره، في حقيقته مشروع نقاهة من مرض في القلب جاء فجأة من كثر الهموم، نصح الأطباء المختصين به بعد اكتشافهم تلفا في إحدى عضلاته الفاعلة، فجاء اقتراح السكن في القرية، والمشي في هذه الغابة من أندرو، ابنها الذي كان سريره في الجانب بالمستشفى المذكور. اقتراحا كان مناسبا لتنفيذ المطلوب، لأن المشي فيها ممتع لمن يصاب باجترار الافكار، وهي تبدو له ممتدة، واسعة، مترامية الأطراف تساعد على الاسترسال، وإن كانت في الواقع مجرد واحدة من آلاف تفوقها سعة في بلد يتفاخر أهله

بوصفه واحة ضباب مخضرة، ومهد للأجناس المتعددة، ومنبع التسامح المعهود، وكثرة الحسناوات.

جميلة تساعد بطبيعتها الخلابة على استعادة المدفون من تلك الأفكار، يزيدها جمالا استعراض السناجب قدرتها على تسلق أشجارها والاختفاء بين الأحراش، وما تفعله أرانب يغلب على لونها البياض الناصع مثل الثلج المتساقط قبل فصل الربيع.

منعشة تيارات هوائها البارد بلا غبار، ورطوبتها التي تتسرب داخل الاحذية والملابس دونما استئذان، وكذلك زكية رائحة ترابها، وعفن اللحاء المتآكل، وما تبقى من الأوراق.

مطمئن سكونها بقليل من الوحشة التي يكسرها صفير الرياح المارة بجذوع الأشجار، وطقطقة الأقدام في وقعها على الأوراق، وبطبطة الأوز في عودته من الهجرة أسرابا، وهو يحلق قريبا من قمم الأشجار، وطنين الحشرات.

وهي كذلك مدهشة بأشجار الصنوبر التي أنبتتها الطبيعة في صفوف متوازية، وكأنها من فعل فلاح حكيم. عندما يتم النظر إليها من أي مكان، يتصورها الناظر لوحة جميلة رسمها فنان قدير. وهي بالتالي المكان المناسب فعلا للمشي سعيا لترتيب الأفكار التي تخرج مبعثرة من الأعماق، تتنطنط على سطح الذاكرة، المليء بتناقضات تتدافع فيما بينها، من أجل الخروج بصيغ متعددة، يعزز تدافعها المتواصل بهذه الطريقة الاستعراضية وِسعْ الغابة ونهارها الطويل، لاسيما في الصيف وفي مثل هذه الأيام التي يحلو فيها المشي لعموم الناس المقيمين والمهاجرين، وكذلك التجوال مثلما يفعل

السكنة الأصليون، للتخلص من اكتئاب موسمي عادة ما يلازمهم في الشتاء، وليأخذوا جرعة فيتامين(د) الذي يتناقص في أجسامهم بسبب قلة الشمس، وطول البقاء داخل البيوت، وإن كانت شمسهم هنا كما يُنوه عنها بخيلة بظهورها في عز الصيف، رحومة في حرارتها التي لا تلسع مثل شمس العراق، وليتمتعوا بالخضرة والهواء العليل، وبسماع خرير المياه الآتي من ذوبان الثلوج، كعزف كمان على يد موسيقار حزين....غابةٌ وكأنها خُلقت للمشي وإزاحة هموم السنين، وترتيب الأفكار، وإن كانت موحشة في بعض الأحيان.

الصمت يعود من جديد بعد لحظات التواد، ومقدمات الاطمئنان، صمت عن الكلام فقط، من دون التوقف عن التفكير الذي استمر جاريا كشريط سينمائي عند الطرفين، تؤكده لغة الجسد وهمس العيون وحركات الرموش، وبعض التعابير الآتية من الوجوه، تَبينَ من تبادل الحديث لاحقا أنه يتعلق ببغداد التي رمت أحدهما وحيدا غارقا في فكر تسلطي عن الانتقام من قاتلٍ لأسرتهِ بسيف خُطَتْ على نصله عبارات الجهاد، مهموما بعجزه عن تحويل الفكرة الى فعل مقبول، تائها في دنيا غريبة، وأرض بعيدة، عاجزا عن رسم خطواته المستقبلية في تسديد الدين الخاص بالانتقام، مستسلما للأوهام والشكوك حد الانفصال عن الواقع الذي يعيشه، ورمت بك مريضا يائسا من تحقيق أحلام العودة إلى العراق وإلى أيام زمان.

ومن بزوغ الفجر الجديد.

ومن كثرة التساؤل عن الدوافع الفعلية لترك بغداد؟. وعن كيفية البدء من جديد في هذا العمر المتقدم؟.

متشائما مرة، تحس ألا فائدة من الكتابة، ومن بذل الجهد في مجالها، لأن جيل القراء قد غادر بغداد مكسورا، وسوف لن يعود إليها محبولا بالقراءة كما كان، بعد أن خَسِر كل كتبه، وما يملك من مال، ولا أمل في البدء من جديد، والافلاس قد فعل فعلته، والوهن قد أخذ من النفس مأخذا، ليصيبها بالاحباط والرغبة بالانعزال.

من يعاود القراءة يا ترى، وهو محبط معزول؟.

متفائلا مرة أخرى، تحس في مقابل ذلك الإحساس الحزين، أن بغداد التي تهدمت أكثر من مرة، قد أعيد بناؤها أحسن مما كانت ألف مرة.

وكُتبها التي حُرقت ورُميت في دجلة أكثر من مرة، قد أعيد وضع مثيلاتها على رفوف المكتبات مئات الأضعاف.

وكُتّابها، وقراؤها الذين يهاجرون هاربين من ويلاتها، وحيف الحكام الجائرين، يعودون إليها حتما لينقذوها من الموت الزؤام، لأنهم لا يقبلون موتا لها مرتبطا بموتهم، ولا يستطيعون التنفس بهواء غير هوائها المشبع بغبار الصحراء، ونسيم دجلة العليل أواخر الليل.

الأمر واضح إذن، لا داعي إلى اليأس والاحباط، خوض التجربة من جديد وارد، وفي الحياة الطويلة التي خبرتها، تجارب كثيرة لبدايات جديدة تكررت مرات عديدة.

مرة مع الشؤم الذي حل على البلاد نتيجة حرب الخليج الثانية عام 1991، يوم أُجبرتَ على ترك المهنة التي عايشتها راضيا ربع قرن من

الزمان، بسبب كتابة تقرير من العميد عبد المنعم الشيخلي، الرفيق الحزبي في التنظيم نفسه.

وجربتها مرة أخرى، أستاذا لمادة علم النفس في الجامعة المستنصرية، لتبدأ بتجربتها من جديد في جامعة الفاتح بليبيا، الجماهيرية التي أسقطتها مشاعر العظمة الموهومة، وتوجهات الاستهانة بقدرات إنسانها البسيط في نشأته وتطلعاته وسكنه المجاور للصحراء.

ومن بعدها تجربة من نوع آخر تتعلق بالتفرغ للعمل السياسي المعارض للنظام البعثي الحاكم في بغداد، الساعي إلى التغيير، بالتأسيس على مساعدة غير مشروطة.... لا توجد شروط في مثل هكذا أعمال، لأن المسافة النفسية بين السياسيين المقيمين في الخارج، وبين الغير، دول وحكومات، بعيدة جدا لا تتحمل الرفض والاحتجاج، ولا وضع الشروط. الفرصة المتاحة في الأفق موجودة حصرا في القبول، والإفادة من هامش التحرك المسموح جهد الامكان، لتحقيق ما يمكن تحقيقة من الأهداف في التغيير، وإسقاط النظام. ولا توجد حسابات لما بعد السقوط. المهم التخلص من الضغوط.

وآخر التجارب، تلك العودة الى الوظيفة الحكومية المدنية بعد سقوط بغداد، واحتلالها عام 2003 من أجل العيش، والمشاركة في إعادة البناء، بداية هي الأخرى من نوع خاص، امتدت ثلاث سنوات في ظروف التوتر والاقتتال، تلاها ترك العمل من جديد بطريقة تقترب من تلك التي حدثت عام 1991 مع فارق بسيط، كان في الأولى شكا في الولاء للنظام الحاكم، وحزب البعث الواحد، على يد الرفاق الحزبيين وكتابة تقرير، وكان هذه المرة توجسا من الانتماء السابق لحزب البعث الغائب، على يد

الزملاء السياسيين، السائرين بنفس الطريق دون الحاجة لكتابة تقرير.... تناقض لا يمكن فهمه إلا في إطار التزاحم على المصالح وتوجهات الازاحة والتسقيط، التي أضحت سمة من سمات إنسان عصر الديمقراطية والتغيير.

الواضح والأكيد، إنها مجموعة بدايات ومحاولات تجريب، ميزت حياة مليئة بالاحداث.

لماذا، لا تحسب أغلبها نجاحا إلى التكيف اللازم لظروف العيش الصعبة؟.

ولماذا، لا تترك الباقي لحسابات التشتت، والإخفاق؟.

ما دام الأمر كذلك، لماذا الاستغراب؟.

ولماذا سؤال النفس هذا، أو حتى الاستجواب؟.

الأهم منهما معا، هل في الجعبة بديل ينهي الأمر الواقع من دون ألم أو عذاب؟.

***

- 5 -

هذا القادم عبر الزمن البعيد منفعلا، يمل الانتظار، لا يجرؤ على الاستمرار بوضع الاستراحة، لشدة الغضب الطافح من داخله، ولا مغادرة المكان هربا إلى الأمام قبل إفراغ وعاء البوح في داخله. يتحرك حول محوره في وضعٍ قلق. يبذل جهدا في أن ينهي وقفة الصمت التي حصلت توا، فتسقط منه الكلمات مثقلة بالهموم متناثرة غير مفهومة.

تشبثَ بجذع الشجرة المتهالك. فَشِل في تحقيق رغبته بالنهوض، ولحظة اليأس المارة جعلته أشبه بالمشلول. يرى ضعفه وأساه في نوبات الصمت التي تعاوده في مواقف المواجهة. يتكئ على يديه المتوترة حتى نهايات أصابعها. يفشل من جديد، فيدور حول نفسه دورة أخرى، وأخرى يتطلع منها إلى الغابة التي تبهر الناظر إليها، انكسارات ضوء الشمس، وارتفاع الظلال وأعشاش الطيور، مجسمات وأشكال هندسية، لا تُمَل عند النظر إليها من قريب. لكنه يملها، يراها مقفرة مليئة بالأحزان، ويرى نفسه حاملا كل هموم الدنيا، وحيدا يتجول في هذا العالم، حائرا بين

الاستمرار بالتجوال هربا من قاتل أسرته، وبين الاستقرار ورفض التفكير بالعودة إلى العراق، ونسيان موضوع الانتقام من قاتل لعين.

يرفع وجهه إلى السماء، يميل بجسمه النحيل قليلا الى الخلف، مستمرا في الاستناد على الجذع الممدود. (الهي أرحمني، لقد مللت التفكير، كرهت نفسي، ضعفي، حاضري المنحوس).

ومن وضع التداعي القريب من الغيبوبة، همس بصوت يرتفع قليلا عن الهمس (هل هناك في الدنيا أقسى، وأتعس ممن يتخيل ظل أسرته المذبوحة بسيف الصديق القديم إلى جانب ظله المعتم في المنام، وفي المسير؟).

التعاسة وحدها لا تكفي، ولا النواح لما يأتي من عمرٍ تَبقى فيه مهموما، متنقلا، حائرا، شاعرا بالتقصير. الموت أرحم من العيش مع النواح، وذكريات تطفح منها رائحة الموت المجنون، والشعور بوخز الضمير، وجسد الأم العاري يأخذ مكانه بين جثتي الأختين مقطعتي الأوصال، ورأس أب مذبوح من الوريد الى الوريد، ولوم الذات على عجزها عن التدخل في موقف الذبح المشهود.

البوح بالمكبوت من الماضي القريب مؤلم، لا مفر منه لمن يعيش ناره الحارقة ليل نهار. حاول القفز على مخاوفه، والبوح بقليل مما يطفو على سطح ذاكرته المصبوغة بالسواد، فانتابته نوبة صمت أخرى، قام بحركة من كلتا يديه الباردتين، تَغيبُ عن النفسانيين العارفين دوافعها الحقيقية. لهث خلالها بصوت مسموع، ضغط على أصابعه النحيلة بقوة، حتى برزت عَظمتا وجنتيه إلى الامام، وانتفخ شريان رقبته على الجنبين بشكل مخيف.

مرارة الذكريات شتّت تركيزه، وهذيانات الماضي بشقيه البعيد، والقريب تجاهد أن تخرج بلا تحكم من عقله المصاب بالدوار، فجعلت الوقت من حوله يمر بوقع ثقيل، وكذلك الحيرة بين البوح بمكبوت يحرر النفس من سجنها، وبين صمت مخنوق تقف فيه الحروف على عتبات اللسان المشلول.

الخيار مازال صعبا، وفرص البوح لا تنتهي عند الجلوس على عشب الغابة النابت على حافات الطريق. ضغط بكلتا يديه على قلبه المهموم، لتجنب الاختناق تحت وطأة الألم الذي سببه سيل الأفكار، الساعي إلى خرق جدار الذاكرة المثقوب.

بدّلَ مجرى الحديث، تنقل فيه من موضوع إلى آخر، بعضه بعيد عن الزمان والمكان الذي هو فيه، وبعضه الآخر في صلب الموضوع، راوغ واستسهل حصره في القرية التي اتخذت قاعدة لترتيب الافكار، وإعادة التنظيم المطلوب للتفكير، استهوته غرابة أهلها الذين يعودون بتاريخ وجودهم مهاجرين هاربين إلى عدة قرون من الزمان، وتقاليدهم التي لا يمكن أن يفهمها من لم يعش بينهم، أو قريبا منهم، وأثارَ انتباهِ موقعها الذي يتوسط المسافة بين قمة الجبل، وسفحه المطل على البحر، والممر الوحيد المحفور بين الصخور، صممه الأوائل متاهة يسلكونها، بخيولهم القوية، ويحمون قريتهم بغلقها عندما يريدون. فكر لحظة في أن ينهي صراع الهيام في داخله، ويستقر بين أهلها. يعيش مثلهم محبا للطبيعة، عسى أن يعوض عنها حب البشر المفقود. فأنتهى به الحال بعد لحظة إلى أن

الاستقرار في مكان محدد، قيد لا يقدر على تحمل تبعات أقلها التوقف عن فكرة يعيش من أجلها، تسكن عقله ليل نهار.

استمع وعلق قليلا على اشراقتها، وخضرة المكان من حولها، ونقاوة هوائها، وزرقة سمائها التي تُحسب من نوع خاص، وكذلك رائحة أعشابها، وأزهارها البرية التي تعد هي الأخرى من نوع خاص. قارنها بحسرة الخسران الباهت، لحاضر ديار بلا خضرة، ولا ماء، ولا أزهار تنبت من جديد، فتوصل إلى أن الخضرة من عدمها للتائه في حياته، أمران متشابهان.

ترك التعليق على السيد أندرو، عاشق الطبيعة، والعيش الناسك بالقرية، وأهمل انتماء أهلها إلى طائفة دينية مسيحية استوطنتها ملاذا آمنا من قبل، كمن لا تعنيه العبادة في هذا الزمان، ولا أصل الأديان، وهو الغارق بهموم الانتقام من شخص، هارب منه، راغب بملاقاته. لا يفكر بالكيف وبرفض العودة إلى العراق التي لا تحقق منطقيا فكرة الانتقام.

دار دورة ثالثة في المكان الذي لم يسعف مساعيه لتقليل التوتر الشديد. نظر إلى سرب أوز عاد من هجرته، طائر الى أعلى قمة الشجر المرصوف. تخيله قد مر بالعراق، ولم يحط به أحتجاجا على ما يجري في داخله من انتشار الأوبئة وأنواع السرطانات، وتغير المناخ ونضوب المياه، والصيد المعتوه بالقنابل الصوتية ومختلف المتفجرات.

أغمض عينيه تماما، لم يعد يرى من حوله، ولم يسمع سوى همس الرياح في مداعبتها الأشجار. انتعش بتيار هوائها البارد بلا غبار، ورطوبة تسربت إلى داخل ملابسه دونما استئذان، دفعته إلى معاودة الرغبة في البوح،

بعد أن عدّل شعر رأسه الطويل، وهو يتدلى خصلا غير منتظمة على كتفه من كلا الجانبين، فجاء صوته مكتوما بنبرة حزن كئيب، لهجته البغدادية بسيطة تبرز من خلالها الحروف الثقيلة، وكان بمجمله أشبه بالعتاب، عن بؤس الطبيعة، وعهر الأقدار التي وضعته هنا تائها، مهزوما، يتشبث بمكان ليس مكانه، يعيش بين أقوام ليسوا من أقوامه، ودفعت بمن تبقى من أهله، هناك إلى أن يستمروا في مواقف التناحر الهمجي المتخلف بين الطوائف والأقوام، وملأت عقله بكوابيس، أقلها رعبا.

جلوسٌ عابرٌ على حافة بيت هدمه صاروخ آت من بعيد، يحاول منه الفرار، فيجد أرجله مسمرة بالمكان.

والمشي من فوق جثث بعثر أعضاءها انفجار عبوة ناسفة، يجهد نفسه أن لا تنغرس قدماه في إحداها، فيحس أنها لا تطاوعه.

وكذلك الاقتراب من سياف صديق، يحاول منه الهرب، فيتعثر في خطوته الأولى، ويبقى مشلولا، عاجزا عن درء توالي الضربات.

كوابيس، تغلفت عمدا بمشاهد الموتى، المرمية جثثهم مقطوعة الرأس، متناثرة لقى على مزابل لم تصل اليها فرق التنظيف. والذباحون بسيوف المجاهدين الميسورين يضعونها على الرقاب. وهاتكو الأعراض المتوحشون، يستعدون لصولة جديدة. ورصاص الغادرين لا يتوقف عن الانطلاق. وفرق التهجير الطائفي تعمل ليل نهار. ومسلحو المليشيات ينصفون ضحاياهم بقتل مستور، وسائله متعددة، أشهرها كاتم صوت. ونقاط السيطرة الوهمية المنصوبة في شوارع بغداد تتحدى السلطة الفعلية. وحفر القنابل والمتاريس تعجز أمانة العاصمة عن تغطيتها بالاسفلت

المغشوش. حتى ملأت الذاكرة بخزين لا ينضب من المقت، والحقد اللئيم.

أي بؤس هذا وأية حياة في بغداد، يغلف أجواءها رماد الحروب، وتزكم أنوف أهلها من غير السياسيين رائحة البارود، وبقي جمرها موقدا للغل والحقد اللعين.

أي بغداد هذه التي عاد أهلها إلى الماضي البعيد، إلى خيمة العشيرة، يستمتعون بلغة شيخ جاهل.

يرفعون رايات الثأر والسلب والانتقام.

يرفضون لمجرد الرفض.

يعارضون كل شيء.

يؤيدون كل شيء.

يصفقون لكل شي.

يهدمون معابدهم على رؤوسهم.

يصرون على إقامة ولائمهم من لحوم أخوتهم.

يعلقون رؤوس من يعطون رأيا بالضد من آرائهم على الرماح، موصدة قلوبهم بأقفال الغل.

يتفاخرون بالمروءة والشهامة والشجاعة والنخوة، بعد أن قتلوها في أنفسهم بأنفسهم.

يتعلقون بياض، يعرفون كتبته جبابرة متسلطين.

يظنون مقتنعين أن من لم يقو بعشيرة، لن يكون عراقيا أصيلا، لا يحق له البقاء بينهم، عليه أن يجلى عن مرابعهم.

وأي بغداد هذه التي عاد أهلها كذلك إلى الماضي القريب.

يخلعون لباس الخاكي المشهور زمن الديكتاتور، ليضعوا العمة والعقال في الزمن الجديد.

يكتبون التقارير الى سلطات الحكم الجديدة، نسخا عن تلك التي كانوا يكتبونها إلى حزب البعث وأجهزة الأمن، يقدمون الوشاية بالمجان، يضنون أنها فقط تضمن لهم الوقوف في الصفوف الأولى، مع قادة العهد الجديد.

يعتقدون أن لحية ناعمة ومسبحة طويلة وخاتم شذر، ينقلهم سريعا من نفاق الحزب الكافر أيام صدام، إلى إيمان الرأي الواحد هذه الأيام.

مقتنعين تماما أن مداهنة بسيطة يتقلبون فيها من عازفين عن حضور التعازي الحسينية ناقدين لطقوسها، زمن صدام، إلى تائبين، يسيرون بمقدمة الجموع السائرة إلى كربلاء مشيا على اقدام حافية في عاشوراء، ستمحي تاريخا سابقا كانوا فيه يمشون على جثث ضحاياهم، وتنشئ آخرين يكونون فيه أصلاء.

أي بغداد هذه التي عفنت جروحها من كثرة الدماء، واستبدلت فيها مجالس أبي نواس على دجلة، بحلقات التكفير في جوامعها التي فاق عددها بيوت الساكنين، وأي بغداد هذه التي تجمعك صُدفها المتعثرة بصديق الدراسة الابتدائية، والمتوسطة في لقاء غريب. لقاء رعبٍ خال من العناق بعد عشر سنين من الفراق، يقيم فيه حد السيف على صديق كان عزيزا، والصديق طريدته، غارقا في الافكار، هاربا من حد السيف.

أي زمن هذا الذي أنست فيه سنوات الغربة قبل السقوط، ذلك الصديق الشرس، ساعات اللعب في ساحة المدرسة، وأمام بابها بعد انتهاء الدوام، ومَحتْ من ذاكرته الجلوس على طاولة الدراسة ذاتها، وتقاسم الغرفة في البيت، الذي وضع قدمه فيه على جثث أكلها الموت، وازالت منها لمحات المشي في شارع العمل الشعبي بالعامرية، وتبادل القصص الباهتة والتحرش الساذج بالبنات، وتلك الأشعار التي كان يقرأها مع الموسيقى التي تعزف في البيت نفسه الذي أغرقه بدماء من استقبلوه، وسمعوا أشعاره بإمعان.

ما الذي دفعه لارتكاب فعلة الذبح الشنيع على مائدة الافطار؟.

عشر سنين مسافة الفراق كانت مليئة بالأحداث المتتالية بعضها لذاك الصديق الذي تسكع في شوارع العامرية نهارا، والاستماع إلى محاضرات دينية تحريضية في الليل، وبعضها تشاجر شبه يومي مع الأب المنشغل بهموم العيش أيام الحصار، وبعضها الآخر انتماء تطوعي إلى فدائيي صدام لتعلم فنون القتال. جميع تفاصيلها لم تنسه اختلافات المراهقة، وانفعالاتها التي تحولت في زمن التناحر الطائفي إلى دوامة انتقام، دفعته لأن يعيش في أنبوبة محكمة الاغلاق، ضاعفت عدوانيته الموجودة في الاصل، وزادت غضبه، وهواجس خوف كانت تسكنه طوال الوقت، وعززت إصراره على قتل الأسرة الصديقة، تحت يافطة الجهاد بسيوف الاسلام.

بغداد الحاضرة سيدي،لم أعد أعرفها، لقد ماتت في داخلي وفي نفوس أهلها، وبالأحرى أماتها أصحاب الذباح، الذين وفدوا لإماتتها من بلاد العرب والاسلام، بعد أن ضيقّوا على الجميع الخناق، وحصروهم سنوات

بسجن داخل النفس، فيه عذاب لم يخبره سجين سياسي زمن القذافي وصدام، حتى أصبح المشي في شوارعها ليلا ممنوعا، ونهارا يشعر الماشي وكأنه يتجول في قبر مظلم مثل أفعى البيوت.

إنها لم تعد بغداد هارون الرشيد، ولا بغداد الرصافي، ولم يعد أهلها الناجون من ويلاتها بغداديين.

اللعثمة مع بداية العودة إلى الكلام عن الماضي المدفون، مشكلة تعاوده من جديد، واختناق الصوت في الحنجرة يصبح واضحا من جديد.

الاسترسال في جمل متقطعة، ينبش الماضي المؤلم ويثير الأحزان. التوقف في حالتها جَنبهُ الدخول في نوبة بكاء، لا يرغب بحصولها في هذا اللقاء.

افتعل حركة في مكان جلوسه المحدود، فتح الحقيبة التي كان يحملها على ظهره عند القدوم، أخرج بساطا من القماش السميك وعلبة سكائر، من مستلزمات الجلوس الطويل، وتبادل الحديث. أشعل واحدة وعرض أخرى، عادةً ألفها من أهل بغداد قبل الخراب. نفثَ دخانها إلى أعلى مثل كل المهمومين، وعاود نفثه من واحدة أعقبتها، لم تنفعا بإخراج الخوف من عروقه المتورمة، ولا بتغيير الشكل الذي بدا أكثر توترا، ووهنا حتى استلقى على البساط، يعض السيكارة بأسنانه التي ترك النيكوتين بقعا سوداً قريبا من جذورها، واضعا يديه تحت رأسه، وعيناه تنظران إلى شجرة في أعلاها يحط طائر أبو المنقار المهيمن على المنطقة سيدا لباقي الطيور.

يريد أن يأخذ استراحة من فرط الآهات التي أطلقها منذ وصوله هذا المكان، أو ربما السكوت اكتفاء بما قيل قبل قليل، لا يمكن التنبؤ بما

سيستجيب في خطوته القادمة. حالته مثيرة للاهتمام، ترتجف فيها جفونه، وكذلك شفتاه، وأكثر منهما أسنانه التي كاد يفقد بارتجافها السيطرة على السيكارة، وكأنه أصيب بنوبة صرع عاودته من فرط الشد العصبي، وكثرة التفكير.

عدل جسمه من وضع الاستلقاء بصعوبة، ليستند الى جذع الشجرة في نية مسبقة للجلوس. استقر في حالته. أن بوجع وألم شديدين، كمن طُعن توا بسكين، واستمر ناقدا هذه المرة.

لماذا الناس هنا من طائفة الآميش المسيحية وغيرها مسالمون، ليسوا مثل الناس هناك من الطائفتين المسلمتين متصارعين؟.

لماذا متدينوهم من هذه الطائفة هنا صوفيون، لا يشبهون الذين هناك في تسابقهم على فتات الدنيا بطريقة تشمئز لها النفوس؟.

لماذا أهل القرية هنا قانعون بعلاقتهم الوطيدة بالطبيعة، يتأملون المستقبل الأفضل للجميع، وسكان القرية، والمدينة هناك مشغولون بأنفسهم، يتناحرون مع بعضهم على رغيف خبز وقطرة ماء؟.

ولماذا هم هنا متعاونون فيما بينهم، يعيشون بلا حقد على غيرهم من باقي الأقوام، ويتقاتل أبناء القوم الواحد هناك على تاريخ، يعرفون معا، أنه غير صحيح؟.

يمكن أن تكون الطبيعة التي أحبوها، ويريدون العودة إليها قد شكلتهم أناساً راضين، لا يتدافعون مع غيرهم ولا يغشون، وقد يكون الأجداد، الذين تخلصوا من بطش الملاحقة الدينية للكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى، قد صنعوا البيئة التي أعطتهم وحفظت بقاء أحفادهم

حتى القرن الواحد والعشرين. بقاءاً سيستمر حتى ظهور المسيح المخلص كما يعتقدون.

السيكارة التي انتهت، أعقبتها أخرى، ثم أخرى، وسعت فتحة الثقوب الموزعة على الذاكرة بغير إنتظام، وبدأ المكبوت ينساب منها كذلك بغير أنتظام. عن بغداد التي قذفت به محتارا في هذه البلاد، وتفاصيل الطعنات التي تلقتها أجساد الخمسة المذبوحين في الصالة بسيف الصديق القديم، وأيام الأسرة الأخيرة في العامرية وبعض تنبؤات الأم بسوء المصير عندما كانت تكرر مع نفسها عبارة (الله الساتر) في غير موقعها. وعن المجاهدين الموهومين ببناء دولة الاسلام على طريقتهم السلفية....مأساة أخذ وقتا لترتيب بدايتها، وعودة الاسترسال في الكلام بإنتظام، حول والده الدكتور عامر ذلك الأستاذ الجامعي المعروف بين زملائه والطلاب، رئيس قسم، أو هكذا يقول، ويكرر القول فخرا بمكانته، ودرجته العلمية عند التطرق الى الموضوع في العشاء الذي يجمع الأسرة على مائدته باستمرار، لكنه فخرا ورضا عن العيش بدأ يتصدع بالتدريج بداية تسعينات القرن الماضي، وبالتحديد بعد حرب الكويت، وتطبيق الحصار، ليتحول الى انتقاد مبطن، ومن ثم احتجاج على الوضع العام لإدارة الدولة والمجتمع كذلك مبطن، لا تذكر خلاله الأسماء. إشارات واضحة إلى تجاوزات تحصل عمدا داخل الجامعة التي يدرس فيها وخارجها، وإلى الحط شبه المقصود لكرامة الاستاذ، واستشراء الغش، وعدم كفاية الراتب للعيش، وتنويه إلى اتساع محاولات ترك الخدمة الجامعية من الأساتذة بالجملة، وهروب العسكريين وعلماء التصنيع والوطنيين الذين ينتقدون في السر،

وتواري التجار من غير العاملين في سوق السكائر، وتهريب النفط الذي يسيطر عليه عدي صدام حسين، والمتنفذون من عائلة الرئيس، وتنحي سماسرة الليل، وبائعات الهوى في الليل والنهار، وقراء الكف، والمنجمون، إلا من يتنبأ بالنصر المبين.

الوجه المغلف بعبوس الكآبة، بات يتمتع بفسحة قليلة للانشراح عند التكلم عن الأسرة، أو عن مجدها القديم. توقف قليلا كمن يفتش عن أفق جديد يمده بمزيد من الانشراح، ثم واصل كلامه عن أسرته المتحضرة. أكد أنها متحضرة، يرعاها أب حاصل على درجة الدكتوراه بامتياز من جامعة أدنبرة، وأم هي الأخرى دكتورة، حصلت على الاختصاص العلمي نفسه، من ذات الجامعة نهاية سبعينات القرن الماضي، وفيها الشقيقة الكبرى شذى، طالبة في السنة الأخيرة طب المستنصرية، والثانية "الوسطى" منى، طالبة في السنة الرابعة هندسة بغداد. أما هو الأصغر، صديق طفولة عبد الجليل في السنة الثانية بكلية العلوم، لم يدرك إبان مراهقته التدهور السريع الذي حصل في العراق بسبب الحروب والحصار.

ولم يفهم تدخل المتنفذين من الحزبيين، وأقرباء الرئيس في كل شيء، حتى أضحوا يزوّجون ويطلّقون، يفقرون ويغنون.

ولم يأت على باله أن والده الدكتور عامر، قد امتنع في حينه عن تنفيذ أمر من أحد الأقارب المتنفذين للرئيس، بإضافة عشرين درجة إلى طالبة تخصه من أجل الوصول إلى مستوى النجاح، وتسبب خوفه الشديد من عواقب الامتناع، بالتفكير الجدي بالهجرة من البلاد... تفكير كان فيه مترددا، خطوة إلى الأمام، وأخرى بنفس القدر إلى الخلف، حسمها موت زميله

الدكتور باسل حديد، الأستاذ المتخصص بالاقتصاد في الجامعة المستنصرية، بنفس اليوم الذي شعر فيه بالتهديد.... ذلك الموت المهين لكرامة الأستاذ (جلطة قلبية) ضربته في موقف دخلَ فيه بما يشبه التلاسن مع أحد طلابه، الذين لا يميز أشكالهم في زحمة الطريق من كثر الهموم، عندما كان ينقله بسيارة له خاصة، اعتاد استعمالها أجرة بعد انتهاء المحاضرات، يستعين بما يأتي من دنانير تضاءلت قيمتها ليدعم عيش عائلته المتكونة من ستة أشخاص.

وفيه ينكث الطالب الاتفاق، ويمتنع عن دفع ألف وخمسمائة دينار، أجرة نقله من الباب الشرقي إلى حي القاهرة، كأنه يتعمد إثارة مشكلة قريبا من البيت الذي يسكنه، بينما يصر الدكتور على أخذ المبلغ كاملا حسب الاتفاق، فيتطور الجدال. يدير الدكتور رأسه إلى الخلف، فيكتشف أن المحتج الذي يلاسنه بانفعال شديد، أحد طلابه المشاكسين. يبصق الطالب الممسوخ بوجه أستاذه الجليل. يمسح الاستاذ رغوتها من على وجهه الحزين.

لماذا تقتلني وقد أعطيتك ما أملك؟.

لماذا تفعل هكذا، وأنت مني بمنزلة الابن؟.

وهو يتهيأ للرد عليه بمزيد من الكلام، أحس بوخزة تصدع لها صدره. شعر بحاجة قوية الى تنفس عميق. عجز عن أخذ جرعة شهيق واعطاء الزفير، وكان كلما حاول مرة أخرى حزه الالم وقطعه الوجع. جسمه الهزيل يتصبب عرقا باردا. يزداد الوجه الأصفر شحوبا. القلب ينبض بسرعة، وكأنه يريد أن يخرج من قفصه الصدري. يمسك مقود السيارة

الكورونا بكلتا يديه. ينحني عليه. يتقيأ، ثم يغط في نوبة إغماء. يتطور الموقف باتجاه التدهور سريعا، فيترك الطالب العاق السيارة، منتشيا بالانتصار على معلمه في معركة جهل موهومة. يتدخل بعض المارة، الذين يراقبون الموقف بالصدفة ينقلونه بسيارته إلى مستشفى مدينة الطب، ليموت فيها بنفس الليلة، موتا لم يُحسب فيه شهيد.

الدكتور عامر، يحسم موقفه من ترك البلاد على الفور، لا مجال للبقاء، والموت كمدا على يد طالب، أو غدرا من أحد أقرباء الرئيس. فاجعة موت الصديق، سبب وجيه يضاف إلى آخر أكثر وجاهة، يتعلق بخوفه من تنفيذ التهديد، الذي مازالت كلماته، ترن نغماتها في الأذان، دفعته لأن ينهي حيرته، ويتخذ القرار بعد عودته من دفن الزميل العزيز بمقابر الأسرة في الموصل الحدباء.

سوريا المحطة الأولى لمهاجري التسعينات، وتاركي العراق، والهاربين من أجهزة النظام، الدخول إليها لمن يريد أن يتجنب عراقيل نقاط الحدود، ومكاتب المخابرات ممكن عن طريق كردستان ومعبر الخابور، سهّله الدكتور أحمد، من قيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الاشتراكي(المنشق عن الحزب الام الحاكم في العراق)، المنسق مع بعض أطراف المعارضة العراقية، الفاعلة في الساحة السورية. العمل الاكاديمي في جامعاتها التي تشكو نقصا في كثير من الاختصاصات العلمية، يقترب من المستحيل، وإذا لم يكن كذلك فالموافقات الأمنية، والسياسية اللازمة تستغرق سنتين في أقل تقدير.

ليبيا في متناول اليد، العمل بها أضمن، والسفر إليها متاح لذوي الاختصاص.

الأسرة تستمر في سكنها بحي الصناعة في مدينة دمشق حتى بدء الحرب عام 2003، وسقوط بغداد، التي دفعت الدكتور عامر إلى ترك التدريس بجامعة الفاتح بمدينة طرابلس العاصمة، وما تبقى من رواتبه، والمستحقات كافة، والعودة إلى دمشق في نيسان الذي انتهى فيه النظام، لاصطحاب الأسرة في الطريق إلى بغداد التي يحلم كثير من الهاربين والمهاجرين العراقيين بغدها الأفضل، وأقتراب فجرها الجديد(كم تمنيت في لحظة رفع عبد الجليل السيف، وهوى به على رأس الوالد، لو بقيَّ في ليبيا ولم يعد منها أبدا، ولم يحلم بالغد الأفضل. وكم فكرت عندما طعنت شذى بالسكين في صدرها لو إني تمردت على الأسرة وحلت دون رجوعها إلى العراق، وأن نبقى معا مشردين).

ما فائدة الندم، وما جدوى التفكير بالماضي. لم يكن أحد قادرا على ثني الوالد عن حث الخطى والاستعجال من أجل الإسهام بإعادة إعمار البلاد، هذه الخاصية التي جمعت الكثير من أولئك الحالمين. الفوضى الحاصلة ما بعد سقوط بغداد من وجهة نظرهم مبرر حصولها، وستتم السيطرة عليها في بحر أيام، والمحتلون سيخرجون قريبا، وسيتركون بصماتهم على بغداد، واحة للديمقراطية، وقبلة مرتقبة للعرب والمسلمين، وسيتغنى بها الشعراء مثلما تغنوا بها كثيرا زمن العباسيين.

أسبوع انتظار في حساباتهم وَهُمْ المتحمسون، زمن طويل. في جمعته الأولى، حلَّ زائرا على بيت الأسرة في العامرية، الدكتور خالد محمد علي،

الصديق القادم توا من منفى قضى فيه أحدى وعشرين سنة، تلاحقه تهمة الامتناع عن التطوع في قاعدة المنصور للجيش الشعبي، إبان الحرب الخليجية الأولى مع إيران. في منفاه اقترب من التيار الديني المعارض لنظام صدام، وأصبح من فرط نشاطه مُنَظرا سياسيا لأحد الأحزاب. يتفاخر بأنه من صنع نفسه، وانه لم يضع قطرة خمر واحدة في فمه طوال حياته السابقة، ولا سيكارة بين شفتيه، وإنه لم يترك جمعة واحدة دون الذهاب الى الجامع للصلاة حتى أيام غربته الطويلة في أوربا.

تناول العشاء مع الأسرة سمكا مسكوفا على الطريقة التقليدية. شرب الشاي المعد على الجمر المتبقي من موقد المسكوف. عرض ضرورة الإسهام في البناء الديمقراطي الجديد لجميع من يرغب بتسريع قدوم الفجر الجديد.

الإسهامة لن تكون في مجال التدريس، بل في مكان تقتضي الخدمة فيه، خبراء من الأساتذة بمجال الادارة والعلوم العامة، ليكونوا معه مستشارين حكوميين.

الدكتور عامر، هذا العراقي الحالم بالفجر القادم الجديد، وبإشراقة الشمس الدافئة في سماء العراق، لا يفكر بنوع الفرص، ولا يميز بينها، ولا يقبل التعطيل. وافق على الفور بعد مداولة بسيطة مع الزوجة التي أعطت موافقتها هي أيضا في الحال. وَرقة الطلب كُتبت كذلك في الحال، وختمت بعبارة أملاها الدكتور خالد (رغبة مني للمساهمة في خدمة العراق الديمقراطي الجديد).

العراق سيكسب عالما مرموقا، تعليق لافت للدكتور خالد قبل مغادرة البيت، أعقبه تحديد دقيق لوقت المقابلة الخاصة بقبول الترشيح، من لجنة غالبية أعضائها من الامريكان والاوربيين، الوقت سيكون بعد الغد، والمكان في القصر الجمهوري الذي يشغله الحاكم المدني للعراق بول بريمر، وطاقمه من غالبية الدول التي شاركت في الاحتلال.

الانتظار بالساعة الثامنة صباحا في استعلامات المنطقة الخضراء، المجاورة إلى بناية وزارة التخطيط التي تخربت بعض اجزائها من قصف الحلفاء، والاتصال الهاتفي سيحدد باقي التفاصيل.

اليوم الأول للدوام لافت، فيه الأمل بالغد الأفضل كبير. الوظيفة بدرجة مستشار. الراتب الشهري جيد، لم يذكره أمام الحضور، مكتفيا بالتنويه بأنه يعادل ما كان يكسبه من عمله في ليبيا مدة عام. السعادة عمت الجميع. الأولاد كذلك فرحون لفرح الوالدين، وإن لم يخوضوا كعادتهم بالتفاصيل.

اليوم الثاني للدوام بقي مطبوعا في الذاكرة. تأنق فيه الدكتور عامر بكامل قيافته الجديدة. وَدعتهُ الدكتورة سامرة إلى باب الدار. الفرحة تكاد تخرجها من ملابسها الانيقة. شذى الابنة البكر محبوبة الوالد، ودعته بابتسامتها المتميزة، واصطحبت منى وسامر معها في سيارتها الخاصة إلى الجامعة، لمتابعة نقل دراساتهم من دمشق إلى بغداد.

الأشهر الستة الأولى مرت بهدوء. مازال الاستاذ الجامعي يعتقد أن الشمس الدافئة ستشرق في سماء بغداد، وإن ما يحصل من فوضى وعراقيل، مؤقت حتما، يحصل في كل المجتمعات النامية، في انتقالتها من

نظام مركزي شديد إلى آخر ديمقراطي، إتحادي، مفتوح للجميع. وما زال يخرج مع بداية الصباح مبتسما، ليعود آخر النهار متفائلا.

الشهر السابع من العمل مختلف تماما، النظرة إلى إحتمالات شروق الشمس على بغداد تتغير بسرعة غير متوقعة، التفاؤل المعهود يتبدل إلى تشاؤم مرير، مع بدايات ظهور مؤشرات التناحر الطائفي. الصبر المعروف آخذ بالنفاد، مع بروز علامات التدافع السياسي الذاتي، لزيادة الكسب غير المشروع.

ينتهي العام 2003، ويحل شهر شباط من السنة التي تلي، ليكون الفيصل في إنهاء التفاؤل تماما، ووأد الأمل في مهده. يعود الدكتور عامر كل يوم منزعجا. ينتقد العمل بمصطلحات لم تكن مألوفة. يؤكد على مائدة العشاء، رغبته بترك الوظيفته، والتوجه إلى التدريس. (انها المهنة الأشرف، لا تدافع فيها، ولا إزاحة وتدليس. البلد بحاجة إلى عشرات السنين، ليحل في ربوع بغداده الفجر الجديد، وليستقيم فيه الانسان المهدم من الداخل، ويعود إلى رشده الوطني كما يفترض أن يكون!).

الوجوم يسيطر على الموقف، لا يرغب في إعادة القرار الذي أتخذه على مسامع الحضور، وكأنه في محاضرة بالجامعة، مؤكدا أنه لا يستطيع العمل مع شلة غالبيتها جشعون لا يهمهم أمر البلاد. كلمات أخيرة قبل أن يدخل غرفة النوم، ليستريح من الهموم، أو ليعيشها مع نفسه قبل الاستسلام إلى النوم.

الانتقال من مهنة الاستشارة إلى الخدمة الجامعية سهل، عندما يكون المعني راغبا في الانتقال، وعندما يتربص لشغل مكانه شخص آخر، يحفر

تحت كرسيه كل الوقت، بإبرة خياط قديم لدفعه بعيدا عن مكان الجلوس، والحلول في موقعه بارع في اشغال المكان بكل اقتدار.

يعجز الدكتور خالد عن الوفاء بإلتزاماته في تحقيق الأحلام، يعترف بعجزه، يُصدم من الروتين الذي زاد عن سابق العهد عدة درجات، وكذلك حجم الفساد، وإصرار السياسيين على فرض المطاليب، وعدم الالتفات إلى تنظيراته التي أخذت منحى جديدا، يَفصلُ فيه الدين النقي عن عالم السياسة الموبوء.

يقرر ترك البلاد، والرجوع إلى هولندا حالماً هذه المرة بالعودة الى وظيفته السابقة محاسبا في دار بلدية أمستردام، وإن تعذر هذا، فإدارة محل لبيع الزهور، يشتريه بمبلغ وفره من راتبه العالي كمستشار. مؤكدا لزملائه القريبين أثناء التوديع بالمطار، أنه لن يرجع إلى بغداد التي تنهشها الذئاب ثانية، يصف العمل في أيامه الأخيرة (قتال وحوش كاسرة، صراع حيوانات جائعة، لا هم لمن يتدافع سوى ملء البطون بالسحت الحرام، وإرضاء الأعلى في الحركة والحزب، مجاميع ألتحق أغلبها إلى العمل على وفق الحصص التي قسمها مجلس الحكم، بعضهم انتهازيون، يدعون التدين، وهم لم يصلّوا ركعة واحدة من قبل، وبعضهم الآخر لم يقبل مناداته قبل خلع بدلة الزيتوني إلا بكلمة رفيق، وبعد خلعها في يوم السقوط وضع في أصابع يده اليمنى خاتمين وكذلك في اليسرى خاتمين مختلفتين في الالوان، لا يقبل مناداته إلا بكلمة سيد. إن بعضهم لصوص لا قبل له، ولكثير من المخلصين بينهم الدكتور عامر بالوقوف أمامهم، ومقاومة تطلعاتهم الشخصية وطموحاتهم غير الشرعية).

يؤكد بخبرة العارف بالأمور أن العراق سيمر بأيام عصيبة، وسيشهد معارك طويلة، بعضها مع خصوم وفدوا من الخارج تحت ستار الدين، وبعضها الآخر مع أعداء من نفس الطائفة والدين، نهايتها خسارة واضحة لحكم الدين الذي يراد له أن يسود. ناصحا الدكتور عامر أن يلتحق بالجامعة على الفور، أو يعود إلى ليبيا من جديد على الفور أيضا، مستشهدا بمقولة مشهورة للزعيم الوطني المصري المعروف سعد زغلول بداية القرن الماضي (مفيش فايدة).

الالتحاق بالتدريس في الجامعة تم ببساطة، وربما بدفع من جهات سياسية ممثلة في مجلس الحكم ترى في افكاره العلمانية قدرا من الخطورة على مشاريعها. النصف الثاني من العام الدراسي انتهى دون مشاكل داخلها، أو في الخارج، حل العام الذي يليه 2005، وجاءت نهايته التي جلبت مشاهد مسلحين على مرأى من الناس، زادت في العامرية بشكل ملحوظ بعد صلاة العشاء.

المرح المعهود في سلوك الدكتور عامر تبدل بإتجاه الجد الممزوج بغضب الانفعال.

السعادة التي كانت تغمره تحولت الى حزن شديد، لا يجيب عن الاسئلة التي توجه إليه، إلا بعبارة (لا تشغلوا بالكم، إنها هموم العراق)، ولا يبتسم لابتسامة حبيبته شذى كما كان الحال الغالب من قبل.

الأمر يزداد تعقيدا وخطورة.

جثث المغدورين المُمَثَل بها تلقى على الرصيف، قريبا من الطريق القديم فلوجة ـــ بغداد.

هجوم على مركز الشرطة القريب في الساعة الأخيرة من منع التجوال.

جنود السيطرة العسكرية القريبة من محطة الوقود المقابلة في موقعها للعامرية، يُقتلون جميعهم نهارا، وتحرق جثثهم في المكان، على مشهد من المارة المرعوبين.

طبيب يتم أغتياله أمام منزله في الشارع الفرعي المجاور لشارع العمل الشعبي.

عائلة مسيحية تباد عن آخرها.

العامرية، المدينة التي يسكنها خليط من الأقوام والأديان بغالبية عربية سنية، تحولَّ السكن فيها انتقائيا، سيارات الهمر الأمريكية تتجول في شوارعها ليل نهار، أوراق تلقى على بعض بيوتها، تطالب سكنتها من المسيحيين بدفع الجزية، والشيعة بالمغادرة على الفور، أو تَقبّل العقاب موتا برمانة يدوية ترمى من خلف السياج.

مسلحون يجوبون شوارعها قبل وبعد حلول منع التجوال. وبعده يضعون عبوات ناسفة لا أحد يعرف أصولهم ولا أهدافهم. المنظر مثير للتوتر. الناس جميعا متوجسون، خائفون. صبر الأسرة ينفد بالتدريج.

أي عالم هذا؟.

من أين جاءوا، وإلى أين سيذهبون؟.

ألم يسمعوا عن سكان هذه القرية النائية في الغابة وعن أهلها، وطبيعتهم المسالمة ومعتقداتهم التي حافظوا عليها مئات السنين؟.

ألم يسمعوا أن أحدا من الاسكوتلنديين، وباقي البريطانيين في العصر الحديث، لم يعترض على جماعة صغيرة، بفلسفتها الغريبة، وعلاقتها الاغرب مع الطبيعة، وأبتعاد اهلها عن مستلزمات الحضارة؟.

ألم يلحظوا أن الدولة هنا لم تقف بالضد من أفكارهم القديمة، ونسبتهم من إجمالي السكان لا تذكر، والجهات الرسمية في دولتنا هناك تنحاز بالضد من أفكار منطقية وان آمن بها نصف السكان؟.

أين نحن من هؤلاء القوم الذين وفدوا مهاجرين من وسط ألمانيا، ليسكنوا هذه الغابة شمال أسكوتلندا؟.

يبنون بيوت قريتهم من حجر جبالها بترتيب واحد، مضى عليها مئات السنين، دون أن تهرم. بيوت متناسقة يدخلها النور والهواء والاطمئنان بمقدار، ويخرج أهلها للعمل بالزراعة والرعي صباحا، ويعودون إليها آخر النهار بمقدار. لا أحد يسألهم في طريق العودة عن أسمائهم وطوائفهم، وإلى أي كتلة ينتمون.

العامرية البعيدة عن هذا المكان، أصبحت خط المواجهة الأول، الوضع فيها يزداد تأزما، أسرها العريقة من الطائفتين الرئيسيتين ومن المسيحيين أو بقايا المسيحيين تُهاجر، أو تُهَجّر، والباقون منهم، يسدون نوافذ بيوتهم قبل المغيب، ويطفئون أنوارها الا من كانت له حاجة ماسة إلى النور.

الدكتور عامر يترك سيارته الخاصة، ويستقل السيارات العامة أي "النفرات" في الذهاب الى الجامعة والمجيء منها. الحديث عن الغد الأفضل والديمقراطية يختفي من البيت، يحل محله الحذر من نقاط السيطرة الوهمية، ومن ملتحين مسلحين يتجولون في الشوارع الفرعية.

الدكتورة سامرة ترتدي الحجاب، الذي وقفت بالضد من ارتدائه عند قدومها من الحلة طالبة في الجامعة بداية السبعينات حتى الأمس القريب، مبررة أرتداءه نوعا من التقية التي تتطلبها الحاجة الى الأمان. تفرضه على البنات قسرا على وفق مفهوم التقية أيضا ومن دون نقاش.

شباب لا يتكلمون اللهجة العراقية، يتواجدون جماعات في الشوارع، يحذرون السافرات مرة واحدة فقط، يطلبون ارتداء الحجاب الشرعي، أو الموت بطعنة سكين، لا يستثنون من تحذيراتهم المستمرة حتى المسيحيات في طريقهن الى مغادرة الحي اللعين.

ضباط الشرطة والجيش من أهل المنطقة يتنقلون بلباسهم المدني بلا سلاح، ولا هويات رسمية.

القتل مباح ومشروع، تتبناه أطراف معروفة، وأخرى مجهولة تعمل في الظلام، وأخرى مشاركة بالعملية السياسية، قدمٌ لها في الحكومة، وقدمٌ ثانية خارجها تمتد عند بعضها سرا إلى مواقع الجماعات الارهابية.

لا يسلم من القتل المبرمج، من كان عمرا ومر في المنطقة التي لا تؤازر السائرين على طريق سلكه عمر، أو من كان علياً وسار في طريق لا يشايع فيه أحد آل بيت علي، أو كان المرور صدفة في مكان أوكل دور فيه لقتل عمر وعلي وقبض الثمن من جهات لا يعرفها أحد من آل علي وعمر.

الهوية التي تحوي إشارة لاسم أحدهما ولو من قريب، يصعب التخلص منها، لمن يسير في طريق العودة الى البيت بالسيارة التي تمر بأكثر من مكان مختص بالتفتيش عن أصل الأسماء.

الامتداد الطائفي الذي لا يتوافق مع الجار يصعب إخفاؤه. الذين يرجعون باصولهم إلى الجنوب الشيعي عليهم أن يتركوا المنطقة قسرا، كما على الناس الذين يمتدون في اصولهم إلى شمال الوسط السني، وغربه أن يتركوا مدينة الشعلة، والشعب قسرا كذلك.

والغزالية المنطقة القريبة من العامرية، انقسمت على غزالية شيعية وأخرى سنية، وساكنوها من الضباط يتبادلون البيوت تبعا لأصولهم المذهبية التي تنسجم، والمنطقة المؤشرة طائفيا. أتفاقات تهجير اثني متبادل غير مكتوبة، واتفاقات أخرى لقتل الاساتذة والأطباء والمهندسين والطيارين، ومن أسهم في صنع إبرة بندقية في معامل التصنيع العسكري، غير مكتوبة أيضا.

مسايرة الوضع الجديد مطلوبة، والحذر واجب، ولبس الحجاب ملزم، وغلق الأبواب وانزال ستائر الشبابيك قبل المغيب حتمي، والحاح أهل البيت على ترك الحي والعمل والدراسة والمنطقة والعراق، يتكرر على مسامع الدكتور عامر من دون توقف ليل نهار.

يقرر أن تنتقل الأسرة من المنطقة في القريب العاجل.

يفتش عن بيت.

يجده في الجادرية قريبا من جامعة بغداد.

يدفع مقدمة إيجار مدة سنة، فتتهيأ الأسرة إلى الانتقال، لكن أوانه قد فات، فالذباح عبد الجليل واتباعه يقفون بالمرصاد، يشهرون اسلحتهم. ينحرون أربعا من أفرادها، وخامسهما عمر ذو الحظ العاثر، قبل يوم من الانتقال.

أي مصادفة هذه؟

(آه لو بكّر الأب بكتابة عقد الايجار قبل يوم).

مالفائدة؟.

الحظ لم ينهض من سباته بعد!.

***

- 6 -

تغلق الغابة على نفسها الصمت المعهود، فيغرقُ الجالس في مواجع البوح بالمكبوت، ويمتد ببصره ماسحا كل المجالات الموجودة بين جذوع الأشجار، يفتش عن مكان يخبئ فيه الألم، لا تنفعه نسمات الريح القادم من البحر، ولا قطرات الماء المتساقطة من زخة مطر انتهت قبل ساعات.

حلم العودة إلى بغداد يبدده فزع الجسد الذي أرهقته مخرجات البوح، ويدثره رفض الطلب المقدم للاقامة على التراب البريطاني، ومشاعر الخيبة من إكمال مشروع الانتقام. ينحني في جلسته، كمن يكتب على صفحات دفتر مدرسي، هَمسُ كلماتٍ تُرهق النفس، وتزيد الأوجاع، يسأل الرب عن حكمة ماجرى له ولأسرته، فتنزل دمعة ألم على خده الناشف، تجسد البوح سبيلا للتخفيف، واعترافا بانتصار الجناة، وإن كان نصرا ناقصا، يحسبه غصة في حلق عبد الجليل، وعورة مكشوفة في سيفه المعقوف.

انتصار أو نصف انتصار، سُجلت وقائعه بذبح الأسرة، واختفاء المطلوب ذبحه في الأصل، وتناول فطورهم الذي حسبوه أن يكون الأخير. توجَ بإطلاق الرصاص في الهواء، كما هي العادة في كل انتصار

مأزوم، سار على سجاياه القوم منذ معارك القادسية التي أرادوها ثانية عام 1980 الى الكويت التي سعوا الى ضمها محافظة جديدة عام 1990، وامتدادات آثارها الكارثية حتى سقوط بغداد. فعلوها هذه المرة بجرأة، وتحد غير مسبوق، لأن المغلوب فيها عائلة أرادت العيش خارج الزمن المألوف.

الاحتفال به نصرا، مثل كل الانتصارات التي اعتاد عليها القوم، يكتمل فقط بالاستحواذ على الموجود غنائم حرب تكللت بالانتصار.

أي شيء يخف وزنه ويغلى ثمنه.

لا استثناءات هنا، ولا شكوك في الغنائم من الناحية الشرعية، الفتوى جاهزة على أي حال.

غرف البيت قد تكون عامرة بالمدخرات، لاسيما وان الدكتورة قد عرضت قبل قطع أنفاسها، ذهبا ونقودا لمن يعتق البنات. لابد وأن ينتشر أهل الغنيمة بينها سريعا، لجمع الثمين. ذهبا أو نقودا، تنفع في تموين مشروع الدولة، أو سداد مكافآتهم لعمل جهادي قاموا به إمعانا بقتل المرتدين.

لم يخططوا لعملية اشتباك مع الدورية الآلية القادمة للجيشين الأمريكي، والعراقي الجديد، التي اجتذبها صوت الرصاص المسموع في عموم المنطقة، وسط هدوء يحصل في العادة بعد الانتهاء من تناول الفطور، واجتذب قدومها انتباه الشخصين المكلفين بالمراقبة، وتأمين الطرق المؤدية الى البيت من مجموعة عبد الجليل، ليشرعا بتحريك سيارة الباترول، واستعجال إيقافها جنب البيت المقصود، مطلقة صوت التنبيه المتفق على

نغمته الخاصة، بطريقة أخرجت الأربعة منفعلين. يدخلونها بسرعة غير مبالين للتبعات، ويتحركون بها إلى مخبأة لهم في الجانب القريب من شارع المطار، مثل (فص ملح ذاب) كما يقول المثل العراقي المشهور.

هم لا يريدون الاشتباك بهذه الدورية المختلطة، وردود فعل أفرادها تبين أنها لا تريد متابعتهم بعد أن تركوا المكان. مكتفية بتحديد مصدر الاطلاق. اقتربت من البيت بحذر، وكذلك الحال بالنسبة إلى الطائرات السمتية "الهليوكوبتر" الثلاث التي أكتفت من جانبها بالحوم فوقه مكانا رصدته بدقة، وكأنها تطير لتأمين الحماية اللازمة للأفراد، وعجلات الهمر بمنطقة صنفت حمراء، بحساب العسكر الامريكي الذي يقود القتال، ولتبادل اتصالات الدلالة، وتلقي الأوامر والتوجيهات، من مركز القيادة الموجود في المطار، وللتصوير القريب، ومتابعة التطورات بعد أن ترجل الجنود من سيارات الهمر الست، وطوق بعضهم البيت المقصود، ودخل آخرون إلى فنائه من الباب المفتوح، يسبقهم صخب الاتصال بالأجهزة اللاسلكية عربيا وإنجليزيا، بات يسمع بوضوح من الملقى على السطح هاربا من الموت، راقدا على بلاط السطح، وقد استبد به اليأس، وشقاء الوحدة أوقد النار في داخله، يكاد ينفجر من شدة الغليان.

يتمدد على بلاط، تغطيه أتربة من بقايا غبار يتصاعد في أجواء بغداد عدة مرات في الأسبوع. وقد ولد في داخله ألم الفراق الأبدي، وهوس الانتقام، من الحسرة على الأسرة التي غادرت توا. ومن أصوات المحركات التوربينية للطائرات التي تحوم فوقه، وهو غير قادر على الوقوف، أو رفع

يديه للدلالة على مكانه، ومن صخب الجنود المنتشرين في البيت، حل على نفسه المكسورة بؤس لا يمكن أن تُدمِلَ جراحه لهفة البوح بالمكبوت.

الدم المسفوح كوّن بركة غطت أرضية الصالة، رائحته تبين أنه مازال حارا، وبقايا فطور على طاولة الطعام مازال حارا أيضا، خمس جثث مقطعة أوصالها، اختلطت دماء الأربعة بدماء الخامس عمر بعد أن قتلته قيم الريف القادم بها إلى المدينة في غفلة من الزمان.

في الوقت الذي توزع فيه جنود على غرف البيت، يكتبون محاضر بتفاصيل الحادث، يصورون كل أجزائه كان الألم الناجم عن تصوير البنات عرايا لا يقل عن ألم الطعن في الصدور.

تقترب إحدى الطائرت في حومها من السطح، وبقيت كذلك حتى فُتحَ بابه بمفتاح يبدو خاصا بفتح كل الأقفال. خرج منها ثلاثة جنود، وجهوا بنادقهم باتجاه المستلقي على أرضيته، صرخوا عليه في أن لا يتحرك، وهو في الأصل غير قادر على الحراك، وفكره الشارد يتمنى لو كان قادرا على ذلك، أملا في أن يجبرهم بحركة غير متوقعة لأن يطلقوا عليه النار، ويخلص من عذاب الفقدان الذي لا يطاق. عيناه المفتوحتان تقول ذلك، وإن عجز الجنود عن التفسير. وبدلا من التفسير، يهجم عليه أحدهم أمريكي، ظانا انه أحد الارهابيين، وعندما تأكد من عدم قدرته على إبداء أي رد فعل، وبعد أن شاهد أثر جروح وخربشات على الصدر، مد أصبعين من يده الغليظة على شريان الرقبة، فأخبر زملاءه الذين يفتشون باقي السطح، أنه ضحية سادسة مازال على قيد الحياة، وبادر على الفور

بالاتصال بالطائرة، طالبا سيارة اسعاف مدرعة، بعد أن فشل في إعادة وعيه، ليتكلم عن مجريات المجزرة.

موجعة هي الأحاسيس بفقدان الأعزة، وبوقع الغربة، ومقاصد الهرب من آهات عقل صحا توا موغلة فيه الجراح.

مؤلمة حين تصب عليها حرارة لوم الذات من البقاء على قيد الحياة، ومن جسم لن يغطى بثياب الحداد.

هل ينفع لبس الحداد؟. بعد انتهاء مراسيم دفن في مقابر النجف، وثلاثة أيام فاتحة في بيت الجد، بمنطقة القاضية في مدينة الحلة، لم يحضرها، ويتلقى مع جده العزاء من آلاف أثارتهم طبيعة الحادثة، فحضروا يواسون ويعزون ويتقولون.

وهل تكفي الدموع هطولا على أرضٍ بلا أهل، ولا أمل بعودتهم من جديد؟.

لا فائدة من البكاء.

لا نفع من الحياة.

ولا أمل بأحلام التواصل معهم في المنام بمستشفى اليرموك التعليمي، التابع إلى طب المستنصرية، التي يستقبل مئات الاصابات في مكانها بصوب الكرخ، وتعج بالمراجعين والجرحى، وجثث الموتى المحشورة في ثلاجات تمتلئ، وتُفَرغ في الأسبوع الواحد عدة مرات، وممرات بين الردهات تستخدم في أزمات الموت، مكانا للتفريغ، بالاضافة إلى الثلاجات، يتعمد القادمون بها والقيمون عليها، إبقاء الوجوه المشوهة مكشوفة، عسى أن يتعرف عليها الأهل، أو الأقارب المارون بالصدفة.

أسبوع كامل، فيه فقدان للوعي شبه كامل، بدأ منذ لحظة الإخلاء من على السطح بحمالة نقل عسكرية، من قبل جنديين عراقيين، مرورا بالصالة التي تتوزع على أرضيتها جثث الخمسة المغدورين، ثلاث منها عرايا تماما.

المنظر البشع يخرجه من جموده، ويُسعِر في نفسه الهياج. يجبره على الالتفات صوبهم ليودع، أو يتفحص عسى أن يكون قد بقي أحد على قيد الحياة. فكرَ في لحظات الاحتظار التي ذاق بعض مرارتها عندما شاهد مقتلهم. شهق من بشاعة التقطيع، واليأس من احتمالات البقاء، شهقة كغرغرة الموت، اعتقد حاملي النقالة، أنها من علامات الموت، مع انها بداية فقدان وعي تام، انتهى به تحت تأثير المورفين القوي على سرير، بين عدة أسرة تزدحم بها الردهة. يتبادل الرقود عليها أناس بعضهم يئن، وبعضهم الآخر بلا حراك، معلقة أكياس الماء المغذي فوق رؤوسهم. من هيئتها ولون الحيطان، وكيس الماء المغذي الموصول بالذراع اليسرى، تم التيقن أنها المستشفى، وإن الجالسة قرب الرأس هي العمة نسرين، المدرسة في إعدادية الحلة للبنات.

استفاقة أولى بسيطة، لم تسمح حتى بالسؤال، أعقبها خدر في عموم الجسم، وشعور بسلب الروح من داخله، دون أن يتمسك بها، فغط في نوبة نوم إلى ما بعد الظهر، تحت تأثير المخدر الذي زرقه الطبيب في المحقنة المثبتة على اليد، أسفل الرسغ. الاستفاقة الثانية من بعدها أطول نسبيا، كلمات خرجت متقطعة من فمه، عبارة عن سؤال موجه إلى العمة عن الأهل، وهل حقا مات جميعهم ؟.

توقفت عندها العمة التي حضرت بعد خمسة أيام من الحادثة، هو الوقت الذي استغرقته إجراءات الدلالة على العنوان، ساعد على تسريع حصولها أحد أعمام عمر، الساكن في المنطقة من عشرين عاما، وإن لم يجد مع أخيه المقيم عنده حتى الآن، تفسيرا لوجود إبنهم مذبوحا مع هذه الأسرة التي يكنون لسمعتها بالمنطقة كل الاحترام.

من حيرتها لم تجد جوابا، ففضلت السكوت، وهي المعروفة بقوة أعصابها، حتى انها قد اختيرت من اسرتها عمدا لترعى ابن أخيها، الناجي الوحيد، متحدية أتجاهات التفجير والقتل على الهوية في الطريق، ومشاهد الجثث المشوهة، واحتمالات ظهور عبد الجليل مراجعا عاديا يحمل كاتم صوت، لإتمام نصف النصر الذي لم يتمه قبل أسبوع.

مؤكدة بعد إعادة السؤال والدموع لم تتوقف، (أن الأهل قد رحلوا ذبحا، ولم يسلم سواه الراقد على السرير). تستعطفه أن يصمد، لأنه الباقي الوحيد، من ذكرى أب كان عزيزا، والجد رمز الأسرة قد أصيب بجلطة قلبية من هول الصدمة، وهو راقد أيضا في السرير، بمستشفى خاص بالحلة، والأعمام جميعا لم يكفوا عن التوعد بالانتقام.

لقد تغيرت الأحوال، ولم تتبق قدرة على تحمل المزيد من الحزن، والخسارة. جميعهم الآن قلقون من أن يقوم الجناة بالتسلل إلى المستشفى، وإكمال جريمتهم الشنيعة، وبسببها جاء شابان من العشيرة لتأمين الحماية، أحدهما خارج الردهة، والآخر يرقد فيها على إنه مريض، ينتظر إجراء عملية إزالة تقرح في معدته، بعد أن تم إدخاله برشوة، قدمت إلى موظف

إداري في المستشفى، رتب أوراق وصور أشعة وأوامر إدخال لقاء مائتي دولار.

اجراءات من هذا النوع مطلوبة، لاحتمالات ممكنة قد حدث شبيه لها، بمستشفى الكرخ قبل شهرين من الآن، عندما حضر إرهابيون، دخلوها عنوة، وأخذوا أحد الجرحى لم يكملوا قتله في عملية لهم قرب نفق الشرطة، فأجهزوا عليه، وتركوه جثة ممزقة على مرأى من المرضى والمراجعين.

مناجاة. حوار حزين بين العمة التي تحاول الهرب من جملة أسئلة لم تجد لها جوابا، وآهات تحاول التخفيف من هولها، وبينه الفاشل في تحقيق رغبة لا شعورية للحاق بالأهل تخلصا من العذاب.

(دع عنك هذا القول، إنه حرام، وإن كل شيء من الله سبحانه وتعالى، لابد من تقبله من دون إعتراض).

لكن الله لا يقبل هذه الأعمال، التي ترتكب باسمه، وبدعوى شريعته.

(هذا أكيد، لا تتعب نفسك، سيأتي الطبيب الموجود في الجوار ليفحصك، ومن بعدها ستعود إلى النوم).

الطبيب الشاب، يفحص القلب بسماعة كانت موجودة في جيب صدريته الملوثة ببقع دم حديثة. يتأكد من النبض، ومقدار الوعي، ويطلب التوقف عن الكلام، (مازِلتَ متعبا. لابد أن تأخذ قسطا من الراحة). وتأكيدا لصحة تشخيصه، غرس أبرة مورفين في الكانولة، أدخلته في نوبة نوم عميق، لم يصحَ منها إلا في اليوم الثاني، ليجد على طرف سريره العم

صالح جالسا مع العمة نسرين، يتكلمان على ضرورة الاستفسار من الطبيب، وكأنهما يبيتان أمرا يريدان إتمامه على عجل.

الراقد على السرير وإن استعاد وعيه، لا يعير الأمر اهتماما، لأنه هزيل، مشوش، لا قدرة له على ترتيب الأفكار.

الطبيب الممارس بخبرته الجيدة في التعامل مع حالات الصدمة النفسية، قد أعاد الفحص بالطريقة السابقة، وثبت تحسن الحال، وأعطى موافقته على الخروج من المستشفى، واضعا شرطه الوحيد، بمراجعة فورية لطبيب نفسي اختصاصي، بسبب التعرض إلى صدمة شديدة قد تترك آثارها السلبية إذا لم تعالج على الفور. شارحا للواقفين جنب السرير، طبيعة هذه الصدمة، معطيا لها مختصرا بالأحرف الأولى من اللغة الانجليزية"PTSD".

المصطلح غريب على العم صالح فيسأل طالبا التوضيح، ومدى الخطورة، فكان الجواب كذلك مختصرا، (أنها تعني باللغة العربية اضطرابات ما بعد الصدمة. تحتاج الى علاج سريع وطويل. ليست خطيرة عضويا. غالبية العراقيين مصابون بدرجات منها، نتيجة عيشهم في ظروف الشد والتوتر واستمرار الحروب).

التفسير مريح بعض الشيء، يستحق عليه الشكر، ينتبه إليه ذلك الذي ينتظر إجراء عملية القرحة المعوية صوريا، فيترك سريره. الحوائج تجمع سريعا (الآن نذهب الى الحلة، لم يبق لنا في بغداد ما يلزمنا على البقاء، ثم إن البقاء هنا خطر على الجميع، لاسيما وأجهزة الدولة في الظروف السائدة غير قادرة على ضمان حماية أحد).

قرار لا معنى لمناقشته، لأن الخطر لمن يفقد نصف وعيه كآبة، ونصفه الآخر عاطل من فعل المخدر، الذي أخذه جرعا بشكل مستمر. لا يثير أية ردود فعل، بإستثناء أسئلة موجهة للذات تنم عن مقدار شديد من الاكتئاب.

لماذا كل هذا الاهتمام، والرغبة بالموت مفتوحة على مصاريعها من دون حدود؟.

الذهاب إلى الحلة من بغداد العاصمة، لشخص مطلوب إلى الأمير، لا تقل المجازفة به عن البقاء بالمستشفى، عند المرور بمنطقة اللطيفية التي تكثر في جزء الطريق المار بها، عمليات القتل والتسليب والاغتيال على وجه التحديد.

سيارة واحدة لا تكفي، ثلاث تفي بالغرض المطلوب، يركب إحداها سامر والعمة، وأخرى للعم صالح وإبن أخيه، والثالثة لشباب من أبناء العشيرة، تطوعوا للحضور تأمينا للحماية أثناء السير على الطريق، لابد أن توصلهم إلى بيت الجد في القاضية قرب ثانوية الحلة للبنين، الذي يتجمع فيه كل الأقرباء والأصدقاء وأبناء المحلة، ينتظرون الابن المفجوع، منقسمة مشاعرهم بين التعزية بفقدان الأسرة، والتحريض على الانتقام بطريقة حاقدة، وبين الرغبة بالتهنئة للنجاة بأعجوبة.

هكذا هي الحياة في هذا الزمان، منقسمة فيها المشاعر والأشياء.

وهكذا هو حال الوصول إلى الحلة، عالم جديد لم يألفه، إذ لم يبق فيه ليلتين متواصلتين من قبل، لأن الوالد الذي كان مشغولا بالبحث والتدريس، يفضل المجيء الى الحلة ايام الجمع صباحا، والعودة منها الى

بغداد آخر النهار، وإذا ما اضطر إلى المبيت، فسيكون الوقت المخصص لوالديه، واخوانه قليلا بالمقارنة مع المخصص إلى شخصين قريبين له، درسا معا، وكبرا معا بنفس البيت حتى افتراقهم بسن الشباب ما بعد الزواج، واستمرار تواصلهم بحدود يحكمها الانشغال بالعمل.

هكذا هو الوضع الجديد، أصبح مفروضا لا بديل عنه، ولا خيار في مجاله، إلا الصبر الذي يكرره أهل البيت الجديد، طوال الوقت، واليأس من الحياة الذي يحسه القادم طوال الليل والنهار، بمزاج كئيب يفقده الاستمتاع بأي نشاط، ويدفع به إلى الاستمرار بالبكاء، وتسلط أفكار تزيد من صعوبة النوم من دون دواء، لمتابعة حياة يحسها تافهة هذا اليوم، مثلما كانت تافهة بالأمس، وباللحظة التي وجد نفسه فيها عاجزا عن إنقاذ الأهل، ولو بالصراخ، كأضعف الايمان.

كيف لا يمكن أن تكون تافهة؟.

وهو المقصر فيها، وهو السبب في مصيبتها.

ألم يكن هو الصديق القديم لعبد الجليل؟.

نعم مقصر، بسبب عدم تنفيذ طلبه بالمساعدة على ضرب المهندس أسامة، شارب الخمر الذي حكم عليه بالضرب، قبل أمتهانه الامارة، وتعلمه فن القتل بالسيف المشرع لاقامة دولة الجهاد الاسلامية.

نعم مقصر، لاعتياده افتعال الجدال معه، وبحضوره حول التزامات الصلاة، خمس أوقات ليثير في داخله التوتر والانفعال الذي كان يتلذذ بحصوله.

إنها حياة تافهة بالفعل، والمستقبل فيها مظلم بلا أهل اعتادوا وحدهم تقديم المساعدة... لا شيء يستحق البقاء.

الجد الذي أصر على الخروج من مستشفاه وقد إهتصره المرض، ينتظر على كرسي الخيزران جنب الباب الخارجية لاستقبال حفيده العزيز، منذ أن أخبروه بمغادرتهم بغداد، حتى بلغ منه الأسى منتهاه. حالته الصحية لا تطمئن، ووجهه الشاحب يثير الشفقة، ووقع مسبحته الكهرب يتباطأ، ومن ثما لا ينفع دافعا للبقاء على قيد الحياة. نهوضه من كرسيه إلى السيارة التي توقفت في الباب، واجتيازه الخطوات الأربع من حافتها إلى الرصيف بصعوبة، تشير إلى قرب توديعه الحياة، وكذلك إرتخاء أذرعه التي لا تحضن بقوة مثل أيام زمان. نظرته بعينين مظلمتين محزونتين، وكلمته التي يصعب نسيانها بنصف العقل الواعي (تعال يا غالي يا إبن الغالي) جاءت من أب يشتهي الالتحاق بعالم ذهب إليه الابن الغالي مكرها.

لماذا إذن البقاء؟.

هل يستحق البقاء للانتقام من عبد الجليل؟.

وهل هناك قدرة في الأصل على الانتقام؟.

أسئلة تأمل الجد أن يجد لها الحفيد جوابا في عيادة الطبيب النفساني بالحلة، وصدم من العجز عن إعطاء الجواب كما يريد، وَصُدمَ أكثر من رأي الطبيب بصعوبة تفريغ العقل، وإعادة نصفه العاطل إلى سابق عهده، نشطا، مرحا، متفائلا بالحياة، بوقت قصير، واعترافه أن الصدمة الحاصلة أقوى من دواء التربتزول الذي بدأ به علاجا للاكتئاب، ومن ثم الليثيوم، بعد التأكد من محاولة انتحار قد جرت بقطع شريان اليد اليسرى.

الحالة تزداد سوءاً، وريبة من المكان الذي أحبه الوالد، وعاش في ربوعه الطفولة، وجزءاً من الشباب، وحكى عن بابله، وثاني أيام العيد في عمران بن علي المجاور لقرية الجمجمة، والنبي أيوب جنوب المدينة وشارع الكورنيش الممتد بين الجسرين والسوق المسقف، في حكايات قبل النوم، وفي جلسات الأسرة على الطعام، ولم تنعش الذاكرة وتقوي الأمل، عند المرور عليها تلبية لرغبة الطبيب المعالج، ولم تزل آثار الصدمة، وكدماتها من العقل المعطوب، حتى غلب على وقع الحياة روتين الاستفاقة من النوم ثم العودة إليه، على نحو متعاقب طوال الليل والنهار، فخارت بسببه القوى، وبات الذهاب الى الحمام بحاجة إلى مساعد يسند الجسم، الذي يترنح من شدة الهزال، وأزداد الشعور بالذنب، مع انشغال أهل البيت من الأعمام والعمة نسرين، وتعطل أعمالهم، وطلب بعضهم إجازات طويلة من دوائرهم، ليتناوبوا تقديم المساعدة للمريض العاجز.

جميعهم من دون أستثناء، بضمنهم الجد الذي امتنع عن الذهاب الى المقهى، الذي اعتاد الذهاب إليه يوميا لملاقاة الأصدقاء، استعاض عنها بأخذ دور بسيط لتقديم المساعدة، وإصدار التوجيهات، والوقوف أثناء الفراغ أمام شباك غرفته المفتوح على الحديقة الخارجية، واضعا رأسه بين كفيه ليغرق بنوبة بكاء محرقة، مخفيا صوت نشيجه كي لا يسمعه المريض الواهن، فيزداد حزنا واكتئآبا.

***

- 7 -

الراقد في الجنب على أرض الغابة بتعابير وجهه، وبعض الحركات المنفعلة من يديه، وقدميه، يشارك ذلك المتكئ على جذع الشجرة في أحزانه، ومأساة اسرته. يحس بتقطيع أحشائه من الداخل، يتخيله في هذا المكان البعيد عن بغداد، كمن يقترب من الموت، يحاول استغلال توقفه المفاجئ عن الكلام، ليعبر له عن مشاعره، ويمنحه فرصة مناسبة لاستعادة الأنفاس، وتخفيف الضغط على قلبه الفتي الذي أضعفته المأساة، وأتعبته كثرة البوح بالمكبوتات (كل إنسان قد ينحدر إلى مستوى النذالة في وقت من الأوقات، لكن نذالة من هذا النوع، لا ينحدر إليها إلا الشقاة المهوسون بالإيذاء. وا أسفاه لقد انتشر الأنذال من حولنا، وتكاثروا في كل مكان من بغداد والعراق، طوال عقدين من الزمان، كانت بائسة، ومع هذا لا يمكن تصور أن غالبيتهم أصبحوا قتلة بهذه الطريقة البشعة.

لماذا الاستمرار في العذاب؟.

هذا هو حالنا، ومصيرنا لابد من مواجهته مهما كان).

سامر المستلقي بموازاة جذع الشجرة، على بساط يرافقه في التيه، وَجدَ في الاسترسال بالكلام، سبيلا للتنفيس عن ألم المكبوت، لم يعطِ مجالا للتوقف، ولا لتبادل الحوار من أجل التذكير بمآس أخرى ألمت بالعراق والعراقيين. يتصور إنه الوحيد في مثل هكذا مأساة، وإن أهله وحدهم مذبوحون.

كيف يمكن مواجهة المصير؟.

وصورة عبد الجليل لا تفارق المخيلة، وحشرجة الموت في حنجرة الوالد كابوس يأتي كل يوم، وتوسلات الام لتفادي فعل الاغتصاب، لا تبرح الذاكرة، وجسد شذى التي طعنت في صدرها بسكين وهي عارية، يُنَغص العيش في أي مكان، والعجز عن فعل شيء في موقف صعب، يجعل الانسان يمشي مطأطئ الرأس، لا يحس بالجبن فقط كما يقول السفاح، بل وكأنه صورة مجسمة لكل ما في العالم من خنوع. وذهان الاكتئاب الذي شخصه الأطباء النفسيون في جلسات العلاج التي زادت عن العشرين جلسة، ليس هو إكتئاباً فحسب، بل يمثل كل معنى الحزن والبؤس والشقاء في عالم بلا فضيلة.

كيف يمكن أن تكون المواجهة؟.

ومازل العيش في أجواء الفاجعة، كأنها حدثت بالأمس، وكأن دم الأسرة لم يتخثر بعد، وكأن الجبن الذي حصل في ذلك المخزن اللعين ملازم للجسد، يتنقل معه في كل مكان.

الانسحاب من ساحة المواجهة تحصيل حاصل، لا قدرة له في الواقع على التقرب منها، والصوت القادم من داخله يذكره عند محاولة الخوض

قريبا من تفاصيلها بالشلل الذي أصاب جهازه الحركي، لمجرد التفكير بمسك الفأس والنزول من المخزن، ويذكره بسعيه الحثيث للهروب من العراق خوفا من الذبح بالطريق نفسه التي ذبح بها الأهل، ويثير في خلايا عقله كابوس عبد الجليل وهو يضحك بصوته الموحش، واضعا سيف دولته الاسلامية على الرقبة بقسوة توقظه من النوم.

ألا يعني هذا نوعاً من الجبن، ورغبة في التشبث بالحياة، وإن كان الثمن رقاب الأسرة؟

وألا يعني إدعاء الرغبة بالموت، والسعي الى الانتحار، وتأكيده أمام الأقرباء، والطبيب المعالج سلوك كذب لا إرادي، أو هواجس خوف لا نهاية لها؟.

إلهي متى تنقى النفس من نمش الهواجس هذه؟.

كيف يمكن التخلص من هذا العبء الثقيل؟.

ومن الاعتقاد أن الناس هناك في العراق، يعشقون القتل، يتلذذون بمنظره البائس في كل الاوقات، حتى يخيل للماشي في شوارعه أنهم بقليل من الاستثناء، يقبلون ممارسته إذا ما أتيحت لهم الفرصة.

لا يجوز تصديق العكس من هذا، في مواقف الشجب على مستوى العلن، لأن كثيراً منهم، وفي قرارة أنفسهم يعشقونه بجنون.

لا يمكن أن تُنسى تلك الأيام التي كانوا يتجمعون فيها حول التلفاز عبرثماني سنوات يشاهدون صور المعركة، وما تعرضه كامرات التوجيه السياسي، وتلفزيون الدولة من مشاهد جنود حرب مقتولين، وقد انتفخت بطونهم، وتورمت أجسادهم، وآخرين تمزقت، وتبعثرت

أشلاؤهم على طول ساحة القتال، وكيف أدمن بعض غير قليل على المشاهدة إلى مستوى لا يشعرون بالاطمئنان، ولا ينامون بعمق إلا بعد المشاهدة بإمعان. كذلك لا يمكن أن تنسى حال أهل بغداد بعد عام 2005 وهم يعبرون من على جثث المغدورين ملقاة على أرصفة الشوارع، في طريقهم إلى العمل، لا يكترثون لمن تكون، ومن كان المسؤول عن فصل الرأس عن الجسد، وكيف كانوا يتناقلون أخبار القتل مثلما يتكلمون عن الأعراس؟.

الأعراس.... كلمة ينطقها بانفعال فتصيبه لحظتها بحالة تشنج عصبي، جعلت شفتيه تتقلصان، وكأنه يبتسم بطريقة من فقد عقله تماما، فإستوجب المنظر نوعا من المبادرة للتدخل من أجل تخفيف ضغط الانفعالات السلبية التي ترافق البوح، بعد أن عاوده التلعثم، والتعثر بالكلام. (إنه ليس جبنا بالمعنى الذي يعتقد، ثم لا يمكن لأحد أن يتدخل، وهو فاقد الوعي، أو قريب من فقدانه، ولو صدف أن تنفس بلهاث مسموع، لواجه مصيرا لا أحد قادر على التنبؤ به، ولا أحد يستطيع الحيلولة دون حصوله، ثم وبعد أن توالد الانذال، وأدعياء الفضيلة المهووسون وكثروا، أصبح من الصعب مواجهتهم). محاولة للتدخل حاءت في وقتها، ومهدت للتنويه عن فرصة إعتقدها وحيدة لتخفيف الألم، والنهوض من سرير الكآبة يوم كان الجد وأبناؤه، وأحفاده ينتظرون مرور أربعين يوما على الوفاة، ليقيموا عزاء في الدار، عندما حضر إليهم أبو محمد، الجار المعروف برفعة أخلاقه في العامرية، مع رجلين يرتديان ملابس عربية، تطبعهم بطابع المنطقة الغربية. أطمأنوا أولا لوقار الجد

والأعمام، وأستحالة قيامهم بالغدر. عرّفوا أنفسهم من أهالي الفلوجة. الجالس على اليمين هو العم الأكبر لعمر، والآخر على اليسار بن عمه، يتوسطهما الجار أبو محمد. لم يتناولوا طعام الغداء الذي أعد على عجل، إلا بعد أن بُختوا بالاجابة عن سؤال حيرهم، يتعلق بوجود عمر مذبوحا مع الأسرة التي نُحرت رقابها كالشياه. الاجابة يطلبونها من الناجي الوحيد، وإن تحجج الجد بأنه مريض، راقد في سريره، (أنتم أهل بخت، قصدنا ولدكم، لم نتناول طعامكم، ولن نغادر هذا البيت المعمور، إلا بعد أن نعرف منه شخصيا سر الموضوع).

العشيرة تطلب تفسيرا، ودم ولدها لا يترك هدرا. المجيء هذا اليوم تحديدا لإنهاء الموضوع الذي طال أمده حسب أعراف تلتزم بها العشائر التي باتت سلطة تؤثر في صيرورة المجتمع. المهم أن يعرفوا فيما إذا كان طرفا فيطلبوا (عطوة) لتأدية الدية، أو مغدورا، فيطالبوا بديته، وبثمن دمه من أي عشيرة كانت. كلماتهم تصل إلى الراقد في الغرفة القريبة. ينهض من سريره. يترنح من كثرة الأدوية المهدئة التي تناولها. في داخله دافع قوي لرد بعض الدين، وفاء لموقف عمر، الذي دفع حياته ثمنا لقيم انتهت عند الآخرين. يقف الحاضرون لمجيئه المفاجئ. يقفز العم صالح لمساعدته في الوصول إلى كرسي قريب، ويهم الرجلان الغريبان بالسلام وأخذ العزاء، فنظر كل منهما إلى الآخر نظرة ندم، وكأن أحدهم يقول إلى الآخر إن الوقت لم يكن مناسبا، وإن الشاب المقصود للاجابة عن أسئلتهم عاجز بالفعل عن أدائها. الحيرة التي بدت على وجوه الجميع بضمنهم الجد، وقد عجزوا في السابق عن دفع المريض إلى النهوض من السرير. لكنه هذه المرة

مختلف، وكأن جزءاً من غيوم سمائه قد أنقشع، مع سرده بعض المشاهد من أولها وإن كانت مشوشة، مؤكدا فيها على سلوك عمر الذي حُشر، ضحية جلبها الحظ العاثر. فكانت وقع كلماته على الرجلين القادمين من منطقة تغلي، رغوة إطفاء لنارها، حمدوا الله بصوت مسموع، (الولد شجاع، أصيل، لم يلوث سمعة أهله والعشيرة)، وكأنهم كانوا يشكّون بغير هذا، حتى التفت الجالس على اليمين إلى الجار أبو محمد (الآن تصدقون، أنا أعرف ابن أخي جيدا، إنه شهم، لا يلبسه العيب، ولا يتلبس به). اعتذرا من المريض العاجز، وعاودا تقبيله (أنت منا بمنزلة عمر، نحن أعمامك، سنلاحق عبد الجليل، وإن كان في آخر الدنيا، ورددا الاهزوجة المشهورة.... وين يروح المطلوب إلنا).

مجيء الجماعة وإن أثار المواجع فانه حقا فاتحة أمل، إذ جلس المريض يتناول الطعام معهم على المائدة، بدأ يتكلم بجمل كاملة، وإن كانت تخرج بطيئة أحيانا، وغير مترابطة أحيانا أخرى. المهم انها خرجت، وبخروجها أزاحت جزءا من الهم الجاثم جبلا على الصدر المليء باليأس. هناك من يشاركه السعي إلى الانتقام، وهناك بصيص من النور في عتمة الظلام الذي استمر قريبا من الأربعين يوما كانت مؤلمة.

الحديث يستمر، وتبادل التعازي هو الأساس، يحل العصر بعد تناول الشاي، فيطلبان الاستئذان بالمغادرة، ويطلب الجد من العم صالح أن يأخذ معه شابين من الأحفاد بسيارته الخاصة، ليصطحب الضيفين قريبا من ناحية اللطيفية، ثم يلتفت نحوهم مازحا (من اللطيفية فما فوق لا

نخشى عليكم)، وانتهى التوديع بوعد أنهم سيأتون في القريب بخبر عبد الجليل.

تنتهي (الأربعين)، وتمر مثلها (أربعين)، والحال كما هي متأرجحة بين اكتئاب شديد يلزم العاجز بعدم مغادرة الفراش، وبين آخر أخف، يبقيه حزينا مقيدا في ضمن حدود البيت. يتجول بين غرفه. دنياه محصورة بخيالاته المضطربة، وبالموجودين في هذا البيت، حتى دب الملل إلى داخله، سببا يفضي إلى الاكتئاب. يدرك الجد، بخبرته الطويلة في الحياة أسبابه، فيقترح سفرا إلى عمان مع العم صالح لكسر شوكته، ومتابعة العلاج. (الأردن فيها أطباء جيدون، وهناك أطباء عراقيون جيدون أيضا يقيمون بها، يعملون في مستشفياتها، وفي عيادات خاصة يشاركون فيها أطباء أردنيين، فرصة لتلقي العلاج عند أحدهم، مهما كلف الثمن). اقتراح وجيه نفذ خلال يومين وفي الثالث، وجدوا أنفسهم أمام طبيب عراقي مختص بالعلاج النفسي السلوكي، يعمل في مستشفى (خمس نجوم)، تكفّلَ أمر العلاج، لم يقدم شيئا جديدا، وإن حاول جاهدا التقديم، مثلما لم تقدم قبله مستشفى الحلة، والعيادات الخاصة في بغداد.

الأدوية ذاتها وإن تعدد الأطباء، وتغيرت التسميات تبعا للشركات المنتجة، والكلمات نفسها من قبل الجميع (لابد من الراحة، وتحمل الوجع، الزمن كفيل بحل الأزمة. هذه أوهام، وتلك تهيؤات. الكلام، البوح، إخراج ما في الداخل من هموم وانفعالات، ومكبوتات مفيدا) يتكرر سمعها، وإن تبدل المعالجون.

شهر في الأردن يكفي، بل إنه كثير على من فقد الأمل في مغادرة المرض، والعودة منها تتم بسيارة (جي أم سي)، عبر الحدود العراقية الأردنية. إجراءات ختم الجوازات في نقطة طريبيل، لا تثير الاهتمام، لأن الفكر مشغول هذه المرة، ببلاد أبعد من الأردن والعراق، انها بريطانيا التي قال عنها حميد الصديق القريب بعد سفره إليها لاجئا قبل سنة، انها المكان الذي يمكن فيه الابتعاد عن هموم العراق. فكرةٌ، لا تروق للعم صالح وهو يجلس في المقدمة بجوار سائق السيارة التي تبتعد عن منطقة طريبيل، بسرعة تظهر على العداد مئة وستون كيلومترا، (الوضع الصحي الآن لا يسمح بالعيش وحيدا في الغربة). مبرر، لم يقنع مريض صمم على الهرب بعيدا عن بغداد، معتقدا أن الهرب وحده يحل المشكلة، ويخرجه من حالة الملل. مقتنع بما اقترحه الصديق الذي تم الاتصال به في الأمس، ومصدق قوله أن بريطانيا تتعايش فيها كل الأديان. غالبية كنائسها التي يعدونها مثلنا بيوت الله، باتت مزارا للسواح المبهورين بعمارتها وفنونها. لا يتدخل المتُعَبدون منهم في شؤون الحكم، ولم يجرؤ أي منهم على إلزام الناس باتباع طريقته في التعبد، ولا يفكر أحد أن يحاسب آخر على أصوله ومعتقداته. عسى أن يجد بمن يقصدها أياما غير أيامه هذه. (انها محاولة لنسيان ما حصل في أقل تقدير). الكلام الأخير هواء في شبك. العم صالح، لا يصغي إليه. جل تفكيره محصور بكيفية الوصول بسلام عبر طريق غير آمن، ضمن المنطقة التي يسيرون فيها قريبا من الرمادي، والفلوجة. يتذكر بقلق ملحوظ تلك السيارات التي خُطف ركابها بقصد ابتزازهم، والأخرى التي قُتل جميع ركابها على وفق إنتماءاتهم المذهبية أو القومية.

المهم في هذه الدقائق الحرجة، الوصول ومن ثم التفكير بموضوع السفر. الجد صاحب القرار الأول والأخير، والطبيب لابد أن يستشار.

بغداد تلوح في الأفق حزينة، تشعر العائد بإنقباض في قلبه الموجوع، تجبره على الالتفات بجميع الاتجاهات، كمن يفتش عن عبد الجليل. ها هي كما تركها مذبوحة بشظايا القذائف العمياء، تَعجزُ الذاكرة عن استرجاع صورة جميلة لها، تشجعه على التشبث بالعودة إليها، أو قبول البقاء فيها إلى الأبد، بسبب حزنها، وحزنه اللذين أجتمعا معا. اندفع بتكرار المطالبة بتركها، والهجرة إلى بريطانيا الأمل الوحيد. لكن التكرار غير مجدٍ أيضا، والعم يغط في نومه من تعب الطريق، لم يسمعه، ولم يحس بحزن بغداد، بقي هكذا حتى محطة الوصول إلى علاوي الحلة، نهاية خط السير القادم من عمان، ومنها الى بابل. لا رغبة للبقاء في بغداد، أو حتى التأخر فيها، لأن الجد الذي يتابع عن طريق الهاتف النقال بقلق، ينتظر في الباب بسبحته المعهودة وثيابه البيض. انتظاره هذه المرة جاء واقفا من غير الكرسي الذي جلس عليه أول مرة. يستقبل الغالي بنفس اللهفة، والدموع، والدعاء التي ابداها في استقباله السابق. يصحبه بنفسه إلى الغرفة التي كانت للوالد، بعد أن أمر بتجهيزها لتكون مناسبة للاقامة والعيش كفرد من الأسرة، لابد من أخذ قسط من الراحة.

تجمعت الأسرة في المساء، يطرح العم صالح بوجودها فكرة السفر إلى بريطانيا، معللا أصلها بالرغبة في إتمام العلاج، وتغيير الظروف، لتخفيف الصدمة على الجد، الذي عارض على الفور، خشية عدم العودة من بلاد يصعب أن يعود منها المتشبثون بالعيش في أجوائها. حسم الموضوع، كمن

يريد أن يعطي لنفسه فرصة قبل القرار (لقد وصلتم قبل ثلاث ساعات، وحتى الآن لم نعرف نتيجة سفركم الى عمان، ألا يمكن الانتظار قليلا لنرى الخير من الشر؟).

الانتظار هو الخيار الوحيد، لابد منه على مضض، كأن الاسبوع الذي انقضى عقدا من الزمان، حتى دخل الجد إلى الغرفة الخاصة مساءاً. توحي هيئته، وكأنه ناقش الموضوع مع الأعمام أكثر من مرة. جلس الى جانبه (ولدي سامر أنت الباقي الوحيد من رائحة المرحوم، كيف لي قبول فقدانك إلى الأبد، قد لا أراك ثانية. جميع الذين سافروا إلى دول الخارج من الشباب لم يعودوا منها، ومن عاد أخذ من الوقت عشر سنين وأكثر، ومن يضمن بقائي على قيد الحياة عشر سنين أخرى). دمعت عيناه اللتان أتعبهما الزمن وأصغرت حجمهما سنوات الشيخوخة، فكانت إجابة اليائس من الحياة (إني أقرب الى الميت منه إلى الحي، لا أحس بمن حولي في هذه الدنيا اللعينة، ولا أتلذذ بطعام، ولا ينعشني ما فيها من هواء، أكره الحياة والناس والمكان الذي أتواجد فيه، أي مكان بالعراق، يشعرني وكأن سيف عبد الجليل مغروس في ظهري، يؤلمني طوال الوقت، وأكثر من هذا يتراءى لي باستمرار، أن توابيت أهلي تملأ المكان الذي أجلس فيه، وان أشباحهم تنام معي في السريرذاته، دعني أجرب عالما آخر ياجدي العزيز، عسى أن يكون ذاك العالم الذي أقصده، بلا أشباح ولا توابيت، وعسى أن ينسيني السفاح الذي جعل نهاري خريفا باهتا، وليلي كله كوابيس).

العيون التي ذرفت دموعا، تحمّر من شدة البكاء، واليأس من إمكان ثني العازم عن السفر، بعيدا عن المكان والزمان، كما هو يأسه من إمكان

الشفاء، والخشية من الجنون، كما كان يقول همسا للمقربين إليه من الأصدقاء الذين يحضرون لتعزيته، وتَفَقَدْ أحوال صحته التي زادت في تدهورها من بعد الحادثة، يُجبر على الموافقة مع سيل من الدموع تنزل على لحيته البيضاء.

العم صالح أصغر الأعمام، وأقربهم إلى الوالد الذي تكفل بعيشه، ومصاريف دراسته الجامعية في بغداد، يأخذ على عاتقه الموضوع، (لابد من الاتصال بالسيد حميد الموجود في بريطانيا، ليدل على الطريق الذي سلكه في الذهاب إليها، أملا في تذليل صعابه) جاء الاتصال به في المساء نفسه محبطا، عندما أكد أنه وصل عن طريق مهرب من دمشق بجواز سفر برتغالي مزور، لقاء ثلاثين ألف دولار، علم بعد الوصول أن المخابرات السورية قد ألقت عليه القبض، وأقفلت أحد منافذ التهريب، ثم إن البريطانيين وضعوا بعض التعقيدات على الوصول بجوازات مزورة. لم ييأس العم صالح المعروف بإندفاعه العالي، طلب من الحضور إعطاءه يومين، أو ثلاثة لتدبر الأمر، جاء في اليوم الرابع والأسرة على العشاء، عارضا وجهة نظر صديق له، موظف في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ببغداد، تتأسس على إمكان درج الاسم في أحد الوفود التي تنظمها الوزارة الى أوربا، أو بريطانيا، لقاء دفترين من الدولارات (عشرون ألف دولار). الجد الذي عمل معلما يتدخل بقدر من التعجب (كيف يمكن إتمام مثل هكذا أمور، وسامر غير موظف أصلا؟)، لافت النظر إلى أن هذا قد يكون نوعا من النصب، والاحتيال الذي يكثر في هذا الزمان، ولتأكيد وجهة نظره روى للحاضرين قصة أحد معارفه ممن

تعرضوا لعملية نصب مشابهة، كلفته البيت الذي تسكنه الأسرة بعد أن اضطر إلى بيعه في حي المحاربين لدفع ثمنه إلى أحدهم، تبين لاحقا أنه نصاب. العم صالح يقطع الطريق على من يشك، (لقد حسبت مثل هكذا اعتراضات، وأصبت مثلكم بالريبة ومع هذا اقتنعت بالفكرة). الشخص الذي سيتم التعامل معه في الوزارة صديق قديم من أيام الخدمة العسكرية التي قضوها معا في السنوات الأخيرة للحرب العراقية الايرانية، وعانوا ويلاتها، وأخطارها معا، حتى اقتربوا من بعضهم بمسافة لا تسمح للنصب أن يتخلل منها، ثم إنه أتفق معه الا يسلم دولارا واحدا، إلا بعد إنجاز كل مرحلة من المراحل المتفق عليها، (سنعطي دفترا عندما نتسلم أمراً إدارياً بتعيين سامر في إحدى دوائر الوزارة، ونتأكد من صحته، ومن ثم أمر مباشرته بوقت يعود إلى ما قبل عدة شهور من الآن، وسنعطي الدفتر الآخر عندما نتسلم كتاباً رسمياً بمشاركته بأحد الوفود الذاهبة الى بريطانيا تحديدا، وما تبقى من مراجعة للسفارة البريطانية في عمان لإتمام التأشيرة سنقوم بها من جانبنا مع أعضاء الوفد الآخرين، ومع ذلك، فهذا هو العرض الوحيد، قد تكون فيه احتمالات للنصب، لكنها أقل من تلك التي تجري على يد مهرب مجهول!).

الجالسون ينصتون، والعم أبو علي، الموظف في معمل نسيج الحلة، يتدخل أول مرة، على غير عادته (مثل هكذا أمور تتكرر في هذه الأيام، ثم إن صحة الولد لا تتحمل بهذلة المهربين، ومجازفة التعامل معهم، علاوة على هذا وذاك هناك مشكلة المبلغ وكيفية تدبيره، لأنه كبير). تدخلٌ، لا يأبه له الجد الجالس في الزاوية ينصت، ويراقب بعقلية الشيخ الحصيف،

العارف جيدا بأن مشكلة العم أبو علي هي الفلوس، فأضاف من عنده موعظة.

لنضع في الحسبان أن الدنيا قد تغيرت، وان أصدقاء كثراً قد خانوا صداقتهم، وقد انتشر في العشرين سنة الأخيرة كثيرا من القصص يشيب لها الرأس، ألم تلاحظوا بأنفسكم أننا قد أصبحنا مثل قطاع الطرق الضالين، مثل أولئك البدائيين. يقتل أحدنا الآخر، وكأننا لم نولد من حواء واحدة.

لم نشرب من ماء الرافدين.

لم يذبحنا الحكام معا، وتسحق رؤوسنا سرف دبابات الحاكم، والغازي معاً.

لم نقف جميعنا بحضرة السلطان نرقص معا، وندفن موتانا الذين دس لهم السم في أقداح العصير الطازج، أو حشرهم في حرب أراد أن يكون فيها إلها، بنفس مقادير الحشر معاً.

إلم تدركوا أننا قد اقتربنا من الوحوش التي تنهش بعضها، نسينا الطوابير التي تشاركنا الوقوف فيها على خبز التنور، وتوابيت الأولاد التي ترمى، مغلقة على باب الدار بعد منتصف الليل، وتجسس المختار، وافتراء الرفيق الحزبي، وعدنا إلى الرقص متفرقين، وإلى كتابة التقارير منفردين، وكأننا خلقنا من جديد، خلقا مسحت من ذاكرته مودة الجلوس في المقاهي، ومتعة الفرجة على لعب المنتخب الوطني، ولذة الفخر ببابل وآشور وملوية سامراء، ونشوة الشعر الذي أبدعه الرصافي والجواهري، وعبد الرزاق عبد الواحد، ومظفر النواب.

مع ذلك فالعين بصيرة واليد قصيرة، لا خيار سوى القبول، لا تعيروا اهتماماً للفلوس، فالمبلغ المطلوب موجود، من مال المرحوم الذي حصل عليه لقاء بيع أرضه في حي نادر، قبل وفاته بشهر، ومازال مبلغ مئة مليون دينار موجوداً، يمكن إعطاء الدفترين المطلوبين، وتحويل الباقي بعد الوصول لإكمال المشوار هناك.

أمل بسيط يدب في ثنايا الشعور، بعد يأس فيه السواد مطبق، مدة أسبوعين حسمت مسألة التعيين، والأمر الاداري، ودفع عشرة آلاف دولار، ومن بعدها بعشرين يوما صدر أمر الايفاد مع خمسة آخرين، وسيدة من منظمات المجتمع المدني، ودفع العشرة الباقية، ومن ثم التوجه إلى عمان، لمراجعة السفارة البريطانية، ضمن وفد لم يسأل أحد من أعضائه عن سبب وجود شاب صامت حزين بينهم، وكأن الايفاد والسفر غاية أسكتتهم جميعا، وهم يقدمون لنيل التأشيرة البريطانية، ويجرون المقابلة في الصباح، ومن ثم تسلمها تأشيرة صالحة لستة أشهر بعد الظهر. تسهيلات زادت من الاصرار للذهاب إلى بريطانيا، والبقاء فيها إلى الأبد، ودفعت إلى التوجه صوب الخطوط الجوية الأردنية، وحجز تذكرة اليوم التالي.

المغادرة تمت بعد الظهر. غفا غفوة عميقة على متن الطائرة، أحست المضيفة حاجته إليها، فلم تحاول إيقاضه عند تقديمها وجبة الغداء.

حميد في الانتظار يقف قبل ساعة من الوصول بصالة المبنى الرقم 3 في مطار هثرو. شرع بالعناق لحظة اللقاء بلهفة، أطال أمدها لاعتقاده أنها لا تكفي لتجاوز ألم الفراق. بادله القادم توا بحرقة دموع لا تفي بالتقليل من قلق الأيام المقبلة. وَجدَ من خلاله بحميد أملا في الولوج إلى عالم آخر ليس

من سكانه عبد الجليل، ووجد حميد فيه رائحة أهل تركهم منذ سنة (ماذا جرى، وزنك قد نقص، شكلك قد تبدل، أخبرني بسرعة، أكاد لا أصدق أن الذي أمامي هو نفسه سامر).

شعور بالاحتظار، رغم الوصول إلى بلد الأحلام.

***

- 8 -

الوقت يقترب من الغروب، شمسه الخجلة تنحسر عن أشجار الغابة، تعود بك ذكرياتها إلى عصر بغداد الذي تَعودتْ أسرها الجلوس في ساعاته الطويلة حول موائد الشاي، قبل أن تتلوث أجواؤها بدخان السيارات القديمة، ومحركات المولدات الكهربائية التي زُرعت في كل شارع، وقبل أن تزحف إلى ساحات بيوتها جيوش الكراهية. وعاء الذكريات المنفرة ملآن حتى آخره، يكاد ينضب لمن أختار البوح سبيلا لتفريغه، وللهرب من سجن حيرته. خيالاته التي عرضها، أو بعض منها تحول إلى صرخات دموع موجعة، سئمت قلبه المتعب، وهو يسطرها مثل شريط سينمائي حافظ على نقاوته رغم تكرار عرضه مرارا، استجابة لنصيحة قدمها الأطباء النفسانيون سبيلا لإراحة النفس، أو نضحا من الذاكرة التي زادت فيها الثقوب.

آه كم حاولت مغادرة أصول آلامي، ونسيان بغداد التي صارت عقيمة لفرط حزنها، والعودة إلى جيل الشباب، وإلى الطمأنينة في مصاحبة شقراء

من أهل البلاد التي هربتُ إليها لاجئا، عسى أن ترد لي آدميتي المفقودة، وفشلت!.

وكم حلمت، وقررت أن أصنع من الحلم حقيقة أتعايش معها، بمشاعر حب أخرى، وأحاسيس ود أخرى، فخانني ضعفي وأعادني قدري خاضعا لسجن الحقد، أفتش عن مَخرَج منه، وأخذني الحلم كوابيس موجعة إلى العامرية التي أمقتها، وإلى البيت نفسه ورائحة الدم التي علقت في شعيرات أنفي الذابلة، وسارت معي ترافقني أينما أكون، أتخيل الاشباح قد سكنته بعد الحادثة، وصور المذبوحات عرايا أمام الكاميرات، حمى تلتهم أفكاري، ونار كلما أوشكتْ ان تخمد، حتى يُصب عليها زيت الغربة فيضرمها من جديد.

لقد وجد في البوح لذة لهج بها، قلقا لا تعرف السكينة مجالا إلى ذاته الملوثة بالمقت ومشاعر الانتقام، كأنه في اللحظات الأخيرة كمن يجلس على مقلاة. مرت دقائق عدة لم تبتعد عيناه عن الطريق المؤدي الى القرية، ربما يفتش عن النهاية، وقبل أن يجدها ندت عنه آهة كالخوار، أشعل بعدها سيكارة راح يدخنها بلذة العائد إلى التدخين بعد فشل محاولات تركه سنين. أرسل دخانها إلى الأعلى، كأنما يرسل معه الشكوى المرة من هذا المصير. (لقد تعبت يا سيدي، وملت الجلوس. أشعر بالحاجة إلى المشي بعد ساعات أنهكتني تماما. لم أتعود البقاء جالسا في مكان واحد لمثل هذه المدة التي جلستها منذ وصولي هذه المنطقة.... لا بل منذ فراق أهلي). الجلوس المستمر أضحى عاملا يزيد الشجون. ومع آخر نفس من سيكارته، هم واقفا. استجمع قواه المبعثرة. وضع بساطه في حقيبته،

وعلقها على ظهره، وسار ماشيا باتجاه القرية. (أكره الغروب، لا أريد المشي أثناءه في هذه الغابة حتى حلول الظلام، وإن كان هنا لا يحل تماما، إلا في أيام قليلة منتصف الشتاء، والحيوانات التي أخشى منها، غير موجودة إلا قليلاً من الذئاب، وهي عموما لا تقترب من الانسان اليقظ).

سأل قبل أن يشرع في إتمام شريط الذكريات عن ما آلت إليه آخر أحداث العراق، وعن مقاصد أندرو صاحب مقترح العيش في هذه المنطقة، وجهوده في الحصول على بيت للسكن المؤقت في مكان يفتخر بأجداده الذين أنشؤوه ليكون آمنا، يجنبهم حقد الانسان على أخيه الانسان. وعن ضيافة قومه التي يقارنها العارف بضيافة أهل الريف في العراق قبل أن يصابوا بآفة الطائفية، ويسألوا القادم إلى مرابعهم ضيفا من أي قوم يكون.

وفي خطوات مضطربة أعقبت النهوض من وضع الجلوس، ووجه مغطى بسحابة إنفعال، راودته فكرة أن يسأل عن النحس.

ألا تؤمن بالنحس؟.

سؤال محير، غريب، لم يفهم القصد من حشره مع حالة التظاهر بالاصغاء، فجاءت الإجابة رغبة بتغيير مجرى الحديث، بتلميحات خفيفة عن عديد من الأسر التي قُتلت غدرا في بغداد، وهم لا يعلمون الأسباب.

وعن آلاف اللاجئين العراقيين الذين رفضت طلباتهم ظلما، واعيدوا إلى بلادهم قسرا، وهم لا يدركون الأسباب.

وعن رواد الجوامع الذين تضاعفت أعدادهم قبل بزوغ الفجر الجديد رياءا، وجثث القتلى التي تترك عفنا في المزابل، وعلى أرصفة الطريق.

وعن برلماني يشرف على خلايا إرهاب، ووزير يسهم بالقتل في السر لإشاعة الارهاب، وحمايات مسؤولين تكلف بأعمال أغتيال.

وعن الهموم التي ملأت النفوس..... وعندما أدرك أنها إجابات قد صيغت بطريقة أريد منها التهدئة، وتغيير مجرى الحديث، تقدم خطوات إلى الأمام، هم بمواصلة المسير، جمع ما تبقى من أفكار مبعثرة، مدفوع بقوة ذاتية لعرض حكايته كاملة، وكأن ما تبقى منها في خلايا ذاكرته البعيدة، يثير في داخله حمى الكبت.

الحظ من وجهة نظره يسبت. قد يصحو مرة في العمر، وقد يبقى في سباته مستمرا مثل الأموات، والنحس حسب أعتقاده ظلٌ يرافقه مذ أحس العيش بعمر مستعار، وهو يهم بالخروج من المخزن في عامريته المشؤومة. صاحبه على نفس الطائرة التي أقلته الى بريطانيا، حتى تمنى بسببه أن تسقط فور إقلاعها، لتكون وسيلة مجبرة على الموت الذي هرب منه. وإلا كيف تفسر رفض سلطات الهجرة البريطانية طلب لجوء تقدم به في شباط من عام 2006 على وفق تفاصيل حكايته، وإستهدافه الواضح من وقعها، وتلك النوبات المتكررة من فقدان الوعي التي تهاجمه، أينما يكون، والكوابيس التي تتكرر في المنام عن أشباه عبد الجليل وهم يحملون السيوف، في صالة البيت التي تمتلئ بهم مع إرتفاع صوت الأذان، والتعثر في الطريق إلى الهرب، والتفتيش عن منقذ من بين الأموات.

النحس من وجهة نظره حاكم بأمره، إمتد بحكمه القاسي إلى موضوع اللجوء الذي رُفضَ لعدم القناعة بالقصة التي رويت تفاصيلها كلمات كانت منقوشة في الوعي المتصدع، مما زاد الايمان بحكمه على مجمل الحياة،

ودفع به إلى العزلة حتى عن حميد الصديق الوحيد في الغربة القاتلة، والشعور بالكرب، وتشوش التفكير إلى حد الهلوسة السمعية (أصوات آتية من السماء، تنده بإلاسم الصريح، تصدر أمرا بالقفز إلى الشارع من شباك الشقة في الطابق الخامس أحيانا، وإضرام النار بمن فيها أحيانا أخرى). وأكثر من ذلك هلوسة بصرية (تخيل الوالدة وكأنها تسير في الجانب الثاني من الشارع، يعبر باتجاهها سريعا من غير الأماكن المخصصة للعبور، يركض نحوها ملهوفا، فيجدها قد إختفت، وكأنها صورة شبح من السماء).

هلوسات، أو تهيؤات تُوقعُ بالحرج، كانت أقساها على النفس، تلك التي تخيلها، مرتدية فستانها الأزرق، تقف بمواجهة محل لبيع الزهور. قصدها مسرعا. أمسك كتفها. قال بصوت عال، أمي، وإذا بها سيدة تصرخ في وجهه الشاحب (ما بك؟) فجاء ردها صدمة جعلته يتجمد في مكانه، وهو الخارج توا من محكمة الاستئناف التي أيدت قرار دائرة الهجرة بلزوم العودة إلى العراق.

كيف يمكن العودة إلى بغداد التي تزدهر فيها صناعة الجثث؟.

لا يمكن العودة إليها الآن، وأهلها يأكلون بعضهم. ولا في المستقبل البعيد من الآن، حيث ينزع الذباحون من أهلها ثياب القصابين، ويبدلونها بأخرى تلائم الرقص على مسرح الأوهام. (فكرت بقتل نفسي في مركز شرطتهم إذا ما ألزموني بالتنفيذ، أو في الشارع العام أمام الجمهور، لأن الأحزاب الحاكمة هنا تخشى الغضب الآتي من الجمهور، وبالمرة أثبت إلى نفسي، ولهم ولمن عالجني من الأطباء إني لست جبانا).

مع هذا القول المتشنج نزلت الدموع غصبا، أجرى محاولة لإنكار نزولها، كمن يتفادى خدش الرجولة، والشك بالقدرة على إرتكاب فعل الموت، الذي يحتاج إلى أعلى درجات الرجولة والتصميم، وهيئته مع ردود أفعاله أثناء الحادثة وما بعدها، لا توحي بها من قريب أو بعيد. إنه محض كلام، وهذيانات فصام، أو تبريرات يقولها مع نفسه ليمحو عن مشاعره الحس بالعار.

أية رجولة هذه؟، لمن وقف متشنجا مثل لوح خشب غير قادر على مسك الفأس، والهجوم بها على الجناة، كما فعلَ الأب الذي ألقى بجسمه متحديا حامل السيف اللئيم.

أية رجولة، يعجز فيها حتى عن التوسل، وتقبيل الأيدي العفنة، لإنقاذ الأعزة، وتجنيبهم الموت الذي قصده هو في الأصل.

هل مازلت مصرا على عدم الايمان بالنحس؟

إنه نحس من النوع المقرون بحزمة مشاكل وهموم، تبدأ واحدة قبل أن تنتهي الأخرى، سلسلة متصلة لا آخر لها ولا أول، سيأتي اليوم الذي يثبت هذا. طال الزمن أم قصر.

حميد عراب عملية اللجوء، والصديق الذي إستقبلَه، وضيّفَه عدّة شهور، لا يترك يوما يمر من دون الذهاب الى العمل في المطعم التركي الوحيد في المدينة، يبدأه الساعة العاشرة صباحا نشطا، وينهيه الساعة العاشرة مساءً تعبا. دورة حياة لم يجد سواها بداً لرسم مستقبله المالي في بريطانيا بلد اللجوء، كل شيء فيها موزون بالمال، لابد من جمعه بأي حال من الاحوال. يفكر في بناء نفسه بهذه الطريقة الوحيدة، وضيفه القادم من

بغداد يفكر في رسم ما تبقى من حياته بطريقة أخرى مختلفة. لا مال فيها ولا أستقرار، وكذلك لا فرصة فيها للزواج، ولا حبيبة تخفف من وجع الغربة... حياة تيه، إختارها وحده من دون علم أحد، وقرر أن يبدأها هذا اليوم بعد خروج الصديق العزيز الى عمله.

الحقيبة التي تحمل على الظهر ممتلئة بالحوائج الضرورية فقط، لا مكان فيها للدواء الذي لم يعد نافعا لعلاج التيه أو التشرد المقرر بدؤه الآن. ورقة من على الرف القريب جاهزة لكتابة كلمات وداع (أخي حميد، لقد كنت قريبا إلي، أحسسني العيش معك بأمان ضاع مني في بلادي التي أصبح العيش فيها مستحيلاً، وسط ضباب كثيف، لا تعرف فيه القاتل من المقتول. لقد ضاقت بيّ الدنيا هناك، وها هي تضيق هنا،لم يعد لي مجال للبقاء في شقتك، ومشاركتك إياي مسؤولية قرار إتخذته بعدم العودة إلى بغداد. سأبقى في بريطانيا، وسأموت فيها، وسأكتب لك إذا ما بقيت على قيد الحياة، أو سأتصل حتما إذا ما دفعني الحظ العاثر لترك التشرد الذي إخترته علاجا لمرض ما منه شفاء. وداعا أخي العزيز).

الورقة بكلماتها المتداخلة، بين الرغبة في الشكوى، والسعي إلى الوداع تترك على الطاولة التي يقرأ عليها حميد بريده الاعتيادي، وفوقها نسخة المفاتيح الثانية ملفوفة بوجع الفراق. محطة الباصات الرئيسية في مانشستر، يمكن أن يستقل منها الراغب بالسفر حافلة، بالاتجاه الذي يريد. الوقت يقترب من الظهيرة، والمحطة المقبلة أدنبرة.

لماذا أدنبرة بالتحديد؟.

القصد في حالات الانفعال الشديد بالنسبة له، غير واضح، تستحثه المكبوتات من دون وعي، وهو هنا قد يتعلق بالجامعة التي درس فيها الوالدان مرحلة الدكتوراه، وعاشا فيها ذكريات الشباب، أربع سنوات، طالما تحدثوا عنها وأحلامهم فيها عند الجلوس حول موائد الشاي، فجاء نوع من الجلد النفسي للذات التي توجعها الذكريات. لكنها مجرد مدينة تشبه أخرى، لم تحل مشكلة الكرب والضيق. العقل مازال مبرمجا بإتجاه الشمال. الجلوس على كرسي في مقدمة الباص المتجه إلى أقصاه، جعله يتصور العالم من حوله سحابة سوداء من ذكريات مشتتة غير متجانسة، لا تكاد تربط بينها رابطة. لبث فيه ثلاث ساعات يراوح بين اليقظة المفرطة، والغيبوبة الشديدة. صحا من آخرها أثناء التوقف للاستراحة، فأخذ الحقيبة. وضعها على الظهر، وسار على طريق فرعي تبين علاماته المرورية أنه متجه صوب آخر نقطة في أسكوتلندا على بحر الشمال.

السير في بداية المشوار سريعا، يتباطأ بالتدريج، التركيز منذ أن قرر فجأة ترك الباص والمشي على جانب الطريق الفرعي بات مشتتا، وكأنه يعيش في خيالاته الخاصة، إنقضت خمس ساعات. توقف في دقائقها الأخيرة لا يدري ما يفعل، وقد إرتخت أطرافه، وإمتقع لون بشرته، ولاحت في كلتا عينيه الغائرتين نظرة حقد على ذاته، فأنفجرت نفسه غضبا، أفاده من حيث لا يدري في أستنزاف حزنه وتوتره، حتى وجد نفسه في صباح اليوم الثاني ممددا على بساط تحت شجرة بتولا. تفترسه الحيرة. تلوح في جسمه آثار المشي بدون هدف واضح، وتلوح في روحه آثار الويلات التي وجهها له الدهر حين أنتزع من وجوده الأسرة مرة واحدة، فجعله رجلاً مسافراً

بلا عقل، رمت به دروب الهجرة إلى بلد ناء، وَضعهُ في حيرته التي دفعته إلى مواصلة السير الاتجاه نفسه، معتقدا في أغلب الظن أن الوصول إلى النقطة الأخيرة في أقصى الشمال ستوقفها تماما. فكرة رسخت بين خلايا العقل الحائر بقوة كافية دفعته إلى المواصلة على الرغم من الاحساس بالتعب حد الارهاق، وتقرحات بانت على أصابع القدمين.

يوم آخر من المشي، بلغ فيه التعب أشده، وزاد الهزال، إنتهى بإستفاقة على كرسي سيارة خلفي، تسير بسرعة تقترب من السرعة العليا المسموح بها (70) ميلا في الساعة، يقودها رجل وبجانبه سيدة، بقايا خصل من شعرها الأشيب توحي أنها كانت شقراء. يوحي شكلهما، بأنهما مزارعان من أبناء المنطقة. سؤال تقليدي عن سبب الوجود في السيارة، وإجابة واثقة من الرجل، (كنت كالميت على الطريق الخاص بمزرعتنا، أثرتَ أستغرابنا، وتبين لنا أنك فاقد الوعي ومحموم، فحملناك معنا أنا آشلي وهذه زوجتي كاترينا، إلى المستشفى التي تبعد ثلاثين ميلا من هنا).

نوبات الإغماء التي تتكرر قد تم التعود عليها، لا فائدة من الذهاب بسببها الى المستشفى. داؤها معروف، ودواؤها غير موجود. إنتهى تأثيرها بمجرد الإفاقة من أزمتها. إلغاء فكرة المستشفى ممكن، شرط عدم السير وحيدا بهذه الحالة الصحية الخطيرة. المزارعان شاهدان على تدهورها، ويتحملان مسؤولية أخلاقية في حالة السماح، والحل الأمثل مصاحبتهما إلى بيتهما القريب، لأخذ إستراحة بسيطة، ومن بعدها مواصلة السير بالاتجاه المطلوب. (النوم في هذه المنطقة خطر، بسبب الذئاب التي تتجول ممنوع

صيدها في العشرين سنة الأخيرة، فما بال الفقدان التام للوعي). الحظ تكفل بالنجاة.

هل حقا من يُذبح أهله محظوظ؟.

وهل يصحو الحظ من سباته؟،

وما فائدة الصحوة، وقد قارب المشوار على الانتهاء؟

نوبة الاغماء أنهكت قواه، وأجهز التعب على القليل المتبقي منها. مسايرة المزارعين في مقترحهما، تشبه إستسلامه للعم صالح يوم الخروج من مستشفى اليرموك والتوجه إلى الحلة. دخول بيت ريفي أسهل بكثير من دخول آخر في المدينة. الليل بات قريبا، والعشاء أمتد فترة أطول، إنتهى بفكرة الاستراحة نوما هذه الليلة. فرصة جيدة للهرب من النفس، والتواري عن الأنظار خجلا، ساعات بعدها تتم المغادرة ومواصلة السير بدون هدف مقصود.

نوم عميق، إمتد طوال الليل، وقليل من الصباح، أداه الجسم المتعب لتعويض الفاقد بالقدرة، والحصول على بعض التجديد، وإستسلم له العقل الذي لم يُقلق بكوابيسه المعتادة حتى النهوض بوقت كان الزوجان يعدان الفطور بنشاط أهل الريف. النزول من الغرفة في الطابق العلوي بطيئا، صاحبه نحنحة كعادة الضيف من أهل العراق، للتنبيه عن حضوره، ولإزالة أي حرج يحصل في المعتاد، فجاء الرد ترحابا بالضيف، وإستفسارا عن طبيعة نومه، وتأكيد إنتظاره على الفطور، وجاءت إستجابته شكرا لما قاموا به في الأمس، ولما قدموه من ضيافة، ذكرته ببقايا عادات كانت سائدة عند الأهل في العراق.

العراق... هل أنت حقا من العراق؟.

نأسف على ما أصاب بلدكم.

أنتهى الفطور، جَمع ما تبعثر من حاجيات، وضعها في الحقيبة المعهودة. نزل الطريقة نفسها التي أعقبت النهوض من النوم.

آشلي بالانتظار (أنا عالم آثار، سبق أن زرت بابل في السبعينات، وقرأت الكثير عن حضارتكم العظيمة، وعرفت بعض عاداتكم، أقلها حين تبقون الضيف في مرابعكم ثلاثة أيام، لتسألوه بعد إنقضائها عن حاجته من المجيئ، وما دمت عراقياً سأتعامل معك بمعايير حضارتكم، وضوابطها التي تتعاملون).

وهل بقيت حضارة في العراق يا سيدي؟

مهما يكن من أمر، فإنها ستبقى الحضارة التي أعطت البشرية الكثير، وعَلمتها أول حروف كتابة. الآثاريون ليسوا مثل السياسيين، يقتصر أهتمامهم على الحاضر، أو مصالح الحاضر وينكرون أثر الماضي، حضارة وادي الرافدين ستبقى الحضارة العظيمة التي رفدت البشرية بمستلزمات بقائها، وتطورها الذي تنعم به في وقتنا الحاضر.

الجسد المنهك، بحاجة إلى مزيد من الراحة، يوم آخر لا يغير مجرى التاريخ، إذا لم تكن هناك مواعيد مهمة في الأجندة. النفس هي الأخرى متعبة، لا قدرة لها على مقاومة العرض، أو المراوغة في الاجابة، وكأن هناك رغبة داخلية للاستسلام تفوق الإصرار على الذهاب، فجاء السكوت عن الكلام قبولا. هكذا فسرته كاترينا التي تترقب، وسحبت إثر تفسيره تلك

الحقيبة المركونة على جنب، وتوجهت بها إلى ذات الغرفة المخصصة للضيوف في الطابق الأعلى (تستطيع أن تأخذ حريتك في هذا البيت).

القهوة بعد الفطور شبه لازمة أعدها آشلي الذي يدعي أنه خبير في إعدادها، وخطط لما بعدها بجولة في المزرعة التي يعدها مع كاترينا عالمهما الخاص، يقضيان جل وقتهما في ربوعها، بعد أن تقاعدا عن العمل في الحفريات، والتنقيب الآثاري.

ركن الصالة يطل على حديقة تحيط بها الورود، مكان مناسب لتناول القهوة. التطرق أثنائه إلى جملة أعمال سابقة، وإلى ولد وحيد ترك المزرعة للعيش في أدنبرة. مع آخر رشفة منها، استاذن للخروج في جولة شملت كل أرجائها. أكواخ لتربية الدجاج، حظائر أغنام، حقول بطاطا، وأخرى للذرة، تشعر الماشي بين أشجارها وسواقي المياه، وكأنه في دار سينما مفتوحة، يشاهد فيلما لطبيعة غناء، لا يوصف جمالها الخلاب، وتحسه وهو يستمع إلى شروح آشلي المفصلة عن كل نبات فيها وشجرة، كمن يستمع إلى أستاذ متمرس في علوم النبات.

ثلاث ساعات هي الجولة. إنتهت فيها كل الشروح عن المزرعة بقدر من التفصيل، إلتفت قريبا من نهايتها إلى الضيف الذي يصغي بإمعان (أرجو أن لا تعتبره فضولاً مني، أو تدخلا في الخصوصيات. ماهي قضية تلك الغيبوبة التي وجدناك غاطا بها قريبا من الموت؟.

هل أنت مريض؟،

أم جاءتك عرضا؟.

كيف لنا مساعدتك؟).

الأحداث التي حصلت بتفاصيلها الدقيقة كتاب مطبوع، تم تصفح بعض أوراقه أمام هذا الرجل الآثاري الذي يمتهن الزراعة، إنتهى بما يمكن تَذَكُرهُ قبل فقدان الوعي على طريق المزرعة بالأمس. ومثل كل تصفح تسوء الحالة النفسية أثناءه، وتنهمر الدموع مثل طفل رضيع لا يقوى على ضبطها. ومع طي الصفحة الأخيرة أثناء العودة الى البيت على الطريق الموازي لأشجار البلوط التي تسيج المزرعة من جهتها الغربية، أصفر الوجه، وحصلت بعض التشنجات في البطن، تدخل عندها آشلي، شد على اليد بقوة، طلب الجلوس للاستراحة، وأخذ نفسا عميقا (آنا آسف. لم أسمع بمثل هذا في حياتي. من أين جاء هؤلاء البشر، لقد أعادونا إلى القرون الوسطى، إلى محاكم التفتيش. إن أعمالهم تنبئ بعودة الشر إلى هذا العالم الحالم بالأمان).

أين هو الأمان؟.

***

إصدارات للمؤلف

1. مقدمة في علم النفس العسكري (مع مؤلفين آخرين) – مديرية التدريب العسكري. بغداد 1983

2. نوايا وحروب. دار المعارف بيروت 2003

3. أزمة المجتمع العراقي. دار الكنوز بيروت2003

4. دوامات المحنة. الدار العربية للعلوم بيروت2007

5. المعنويات في الميدان، نظرة في التقويم والقياس – مطبعة الرشيد. بغداد 2011

6. حصاد العاصفة، الجزء الأول (ثقافة التضاد في عراق بين زمنين).الشؤون الثقافية بغداد 2011